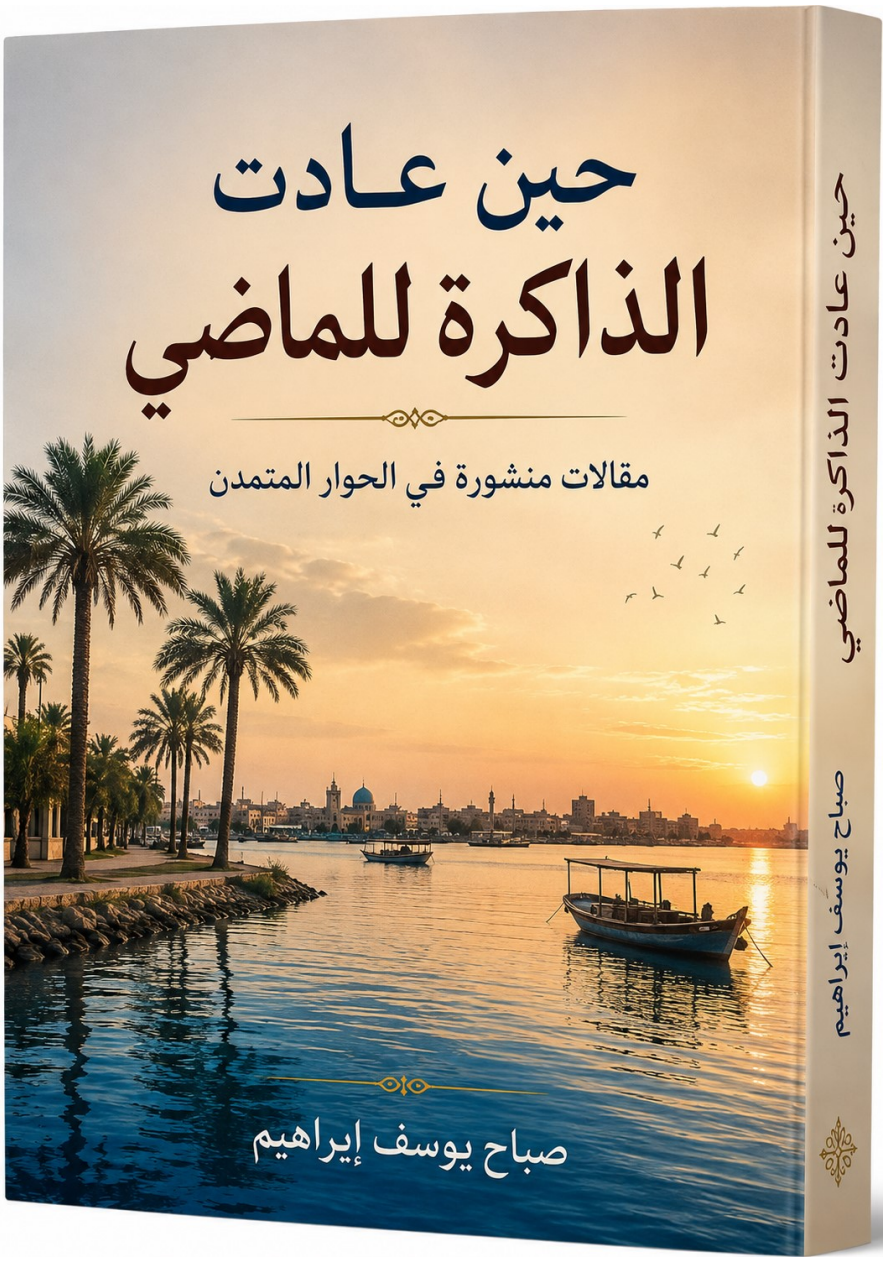
حين عادت الذاكرة للماضي
مقالات منشورة في الحوار المتمدن
صباح يوسف إبراهيم
حين عادت الذاكرة للماضي
صباح يوسف إبراهيم

حين عادت الذاكرة للماضي

تأليف

صباح يوسف إبراهيم

الطبعة الأولى

آب/أغسطس 2026

مقدمة الكتاب

هناك ذكريات نعيشها ثم نمضي، وذكريات أخرى تبقى في أعماقنا مهما ابتعد بنا الزمن.

لم أكن أتوقع أن تقودني هذه الذكريات إلى صفحات كتبتها بنفسي قبل ستة عشر عامًا، ضمن مقالات كنت قد نشرتها بنفسي قبل ستة عشر عاماً.

كنت قد نشرت منذ عام 2010 عددًا من المقالات في موقع «الحوار المتمدن»، كتبت فيها عن مراحل مختلفة من حياتي، وعن مدينتي البصرة، وطفولتي وصباي، وعن سنوات الدراسة، وعن تجاربي خلال الحروب التي عاشها العراق، وعن مواقف مررت بها بصفتي مهندساً وموظفاً ومواطناً عراقياً.

ومع مرور السنوات، نسيت بعض تلك المقالات، ولم أعد أتذكر أحياناً أنني كنت قد سجلت تلك الأحداث كتابةً.

وعندما عدت في عام 2026 إلى كتابة بعض ذكرياتي من جديد، كنت أعتمد على ما بقي في ذاكرتي بعد عقود طويلة. ثم بدأت أبحث في أرشيف مقالاتي القديمة، فإذا بي أجد نصوصًا كنت قد نسيتها تمامًا، وكانت تسجل كثيرًا من الأحداث التي استعادتها ذاكرتي. وكانت المفاجأة أن كثيراً من الأحداث التي استعادتها ذاكرتي في عام 2026 وسجلتها كذكريات في كتبي التي أصدرتها مؤخرًا، كانت قد سُجلت بالفعل في تلك المقالات القديمة، عندما كانت الأحداث أقرب إلى زمني وذاكرتي.

لقد وجدت ذكريات طفولتي في البصرة، ووجدت قصة التحاقي بكتائب الشباب وأنا طالب جامعي عام 1967، ووجدت تفاصيل من حياتي خلال الحرب العراقية الإيرانية، ومنها إيفادي إلى منطقة كانت تدور فيها معارك شرسة، وذكرياتي عن خدمتي القسرية في الجيش الشعبي، كما وجدت قصة هروب عائلتي من بغداد طلبا للأمان في شمال العراق خلال حرب الخليج الثانية.

وفي بعض الأحيان كانت التفاصيل التي وجدتها في المقالات القديمة هي نفسها التي بدأت ذاكرتي تستعيدها من جديد، حتى في أمور صغيرة كنت قد نسيتها، ثم فوجئت بأنها كانت محفوظة على الورق منذ ستة عشر عاماً.

وهنا أدركت أنني لا أكتب هذا الكتاب من الذاكرة وحدها.

هناك ذاكرة حية في داخلي، وهناك إلى جانبها ذاكرة مكتوبة تركتها أنا نفسي في الماضي.

ولهذا أصبح هذا الكتاب بالنسبة إليّ محاولة لاستعادة الماضي من مصدرين: ذاكرة الإنسان، تؤيدها ذاكرة موثقة على الورق.

ولا أدعي أن الذاكرة البشرية تحفظ كل شيء بصورة كاملة. فقد تختلف بعض التفاصيل، أو يتغير ترتيب بعضها بعد مرور عقود طويلة. لكن المهم أن جوهر الأحداث بقي حاضراً، وأن النصوص القديمة أصبحت شاهداً يساعدني على العودة إلى ما عشته، ويمنحني ثقة أكبر بأن هذه الذكريات ليست مجرد صور بعيدة في ذهني.

ولذلك قررت أن أحتفظ في هذا الكتاب أيضاً بشهادات بعض القراء الذين علقوا على تلك المقالات عندما نُشرت لأول مرة.

فهؤلاء القراء لم يكونوا مجرد متابعين للنصوص، بل كان بعضهم قد عاش التجارب نفسها أو تجارب قريبة منها، فكتبوا شهاداتهم وذكرياتهم، وأحياناً أضافوا تفاصيل من حياتهم تعكس الظروف التي عاشها العراقيون في تلك المراحل.

ولا أورد هذه التعليقات على أنها جزء من تجربتي الشخصية، وإنما بوصفها وثائق إنسانية مرافقة للذكرى، وتكشف كيف تلقى القراء تلك الأحداث عندما كانت قريبة من زمنهم.

وهكذا أصبح أمام القارئ في هذا الكتاب ثلاثة أزمنة تلتقي معًا: زمن الأحداث التي عشتها في العراق، وزمن المقالات التي كتبتها عنها عام 2010، وما بعده، وزمن استعادتي لهذه الذكريات من جديد في كتبي عام 2026.

إنني لا أكتب هذه الصفحات لأحاكم الماضي من جديد، ولا لأقدم دراسة سياسية أو عسكرية، وإنما لأحفظ شيئاً من حياة عشتها كما رأيتها وكما بقيت في ذاكرتي.

أكتب عن طفل عاش طفولته في البصرة، وعن طالب جامعي كان يحلم بالتخرج، وعن مهندس وجد نفسه وسط الحروب، وعن مواطن سُيق إلى الخدمة قسراً، وعن أبٍ حمل عائلته وهرب بها من بغداد بحثًا عن مكان أكثر أمانًا وربما تكون قيمة هذه الذكريات في بساطتها؛ فالتاريخ الكبير لا تصنعه البيانات والقرارات وحدها، وإنما يعيشه الناس في بيوتهم وشوارعهم ومدارسهم ومصانعهم وطرق سفرهم، ويتركون وراءهم قصصاً صغيرة تكشف أحياناً أكثر مما تكشفه الكتب الرسمية.

لهذا أضع هذه الصفحات بين يدي القارئ، وفي ذهني فكرة واحدة:

قد ينسى الإنسان بعض ما كتب، وقد تتعب الذاكرة مع مرور السنين، لكن ما عشناه بصدق يبقى في داخلنا، ينتظر يوماً ما لكي يعود إلى الحياة.

صباح يوسف إبراهيم

إهداء

إلى عائلتي التي رافقتني في رحلة العمر،
وشاركتني أفراحي وأحزاني، وتحملت معي ظروفاً لم تكن سهلة.

إلى أبنائي وأحفادي،
لأنني أريد أن تظل هذه الصفحات شاهدة على جزء من التاريخ الذي عشته، ولأنني أتمنى أن تعرف الأجيال القادمة ما عاشه آباؤها وأجدادها، لا من خلال الكتب الرسمية وحدها، بل من خلال الإنسان الذي كان يعيش تلك الأحداث يوماً بيوم.

وإلى كل من أحب العراق،
وما زال يحمل في قلبه ذكريات مدنه وأهله وأيامه الجميلة.

صباح يوسف إبراهيم

حين عادت طفولتي من أرشيف الماضي

ما كتبته بمقالات في موقع الحوار المتمدن قبل 16 عاما مضت، من ذكريات مؤثرة .

المقال الأول:

شهدتُ مقتل نوري السعيد

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما شهدتُ واحدة من أكثر الأحداث اضطراباً ورعباً في تاريخ بغداد الحديث.

كان ذلك في صيف عام 1958. جئت من البصرة مع والدتي في منتصف شهر تموز لزيارة شقيقتي الكبرى التي كانت تسكن في بغداد، وكانت إقامتها في منزل مقابل حديقة الملك غازي، المعروفة اليوم بحديقة الأمة.

وفي صباح 14تموز 1958، استيقظت على صوت شقيقتي وهي تنادينا وتقول إن هناك شيئاً غير طبيعي يحدث في الشوارع.

اقتربنا من الشرفة المطلة على الشارع، ورأينا جماهير من الناس تركب سيارات النقل وتهتف، وأعدادًا كبيرة منهم تركض في الشوارع بصورة لم نعتد رؤيتها.

لم نكن نعرف ما الذي يحدث.

فتحنا المذياع، فإذا بأصوات حماسية تعلن قيام ثورة ضد الحكم الملكي، وتطلب من الشعب مؤازرة الثورة الجديدة، وتتبعها الأناشيد الوطنية والمارشات العسكرية.

لم يكن الطفل الذي كنتُه في ذلك الوقت يفهم السياسة، ولا يعرف تفاصيل الصراع الذي أدى إلى سقوط النظام الملكي. كان كل ما أعرفه أن شيئاً كبيراً قد حدث في بغداد، وأن المدينة التي بدت لي هادئة بالأمس أصبحت في صباح واحد مختلفة تماماً.

وقد كان 14تموز 1958 بالفعل يوم انقلاب عسكري أطاح بالنظام الملكي الهاشمي وأعلن قيام الجمهورية العراقية.

لكن ما رأيته بعيني في ذلك اليوم جعل الثورة بالنسبة إليّ شيئاً مختلفاً عن البيانات التي سمعتها في المذياع.

1

أول مشهد للموت

في عصر اليوم نفسه، كنت أتمشى في الشارع المتجه من ساحة الطيران نحو القصر الأبيض قرب مدارس الشرطة.

لاحظت تجمعاً من الناس، فدفعني فضولي الطفولي إلى معرفة سبب تجمعهم.

اقتربت، وحشرت جسدي الصغير بين الرجال الواقفين، محاولاً الوصول إلى الأمام.

وعندما وصلت، رأيت لأول مرة في حياتي ثلاث جثث لرجال متفحمة، وقد اسودت أجسادهم من شدة الاحتراق.

لم أكن أعرف من هم هؤلاء الرجال، ولم أعرف ماذا حدث لهم، وكل ما فهمته وأنا طفل أنني أمام جثث بشرية قُتل أصحابها وأحرقت أجسادهم في خضم الأحداث التي كانت تعصف ببغداد.

جلست القرفصاء بجانب إحدى الجثث، مدفوعاً بفضول الطفل وخوفه في الوقت نفسه.

وفجأة تحركت الجثة.

انقلب صاحبها من ظهره إلى جانبه.

تجمدت في مكاني.

اعتقدت للحظة أن الميت قد عادت إليه الحياة.

صرخت صرخة رعب من أعماق نفسي ونهضت لأهرب، لكن فضولي دفعني مرة أخرى إلى النظر خلفي.

وهنا اكتشفت الحقيقة: كان أحد الواقفين قد أمسك بسلك مربوط بمعصم الجثة وسحبها، فانقلبت إلى جانبها.

كانت تلك اللحظة صدمة حقيقية بالنسبة إليّ، وبقي أثرها في نفسي فترة طويلة، حتى أصبحت الجثث المتفحمة تظهر لي في أحلامي.

ومن المهم بالنسبة إليّ اليوم أن أقول بوضوح :أنا لا أعرف من كانوا أصحاب تلك الجثث الثلاث، ولا أستطيع أن أنسبها إلى شخص أو جهة من دون دليل. أنا فقط أروي ما رأيته بعيني وأنا طفل.

اليوم التالي... نوري السعيد

في اليوم التالي، 15تموز 1958، ذهبت مع والدتي لزيارة خالتي التي كانت تسكن قرب الباب الشرقي.

كنت يومها لا أزال أعيش ببراءة الطفل، ولم أكن أعرف أنني سأشهد بعد ساعات مشهداً سيبقى محفوراً في ذاكرتي طوال حياتي.

كان زوج خالتي مدخنًا، وكان يستعمل قداحة قديمة ذات فتيل قطني تُملأ بالبنزين، لكن البنزين كان قد نفد من القداحة، فطلب من ابنه، وكان اسمه صباح وقد (انتقل الى رحمة الله)، أن يذهب إلى محطة الوقود قرب ساحة النصر في شارع السعدون ليشتري بطل بنزين صغيرًا.

ذهبت مع ابن خالتي صباح.

كنا أولاد خالة بأعمار متقاربة، تجمعنا صداقة حميمة، وكنت سعيداً بالرحلة الصغيرة التي جمعتني معه في بغداد لأني كنت اسكن مدينة البصرة.

وفي الطريق كان ابن خالتي يحدثني عن آخر فيلم شاهده عن الهنود الحمر ومغامراتهم مع الرجل الأبيض الأمريكي.

لم نكن نعرف أن تلك الرحلة البسيطة لشراء قنينة بنزين ستتحول بعد دقائق إلى مشاهدة حدث تاريخي دموي.

عندما وصلنا إلى ساحة التحرير، رأينا دبابة للجيش متمركزة في وسط الساحة، والجنود ينتشرون حولها وهم في حالة تأهب.

ثم سمعت ضابط الدبابة ينادي الجنود للصعود إليها بسرعة.

قالوا إنهم متجهون إلى البتاويين، حيث كان رئيس الوزراء السابق نوري السعيد موجوداً.

كان اسمه معروفاً لكل العراقيين آنذاك، فقد كان من أبرز رجال السياسة العراقية، وتولى رئاسة الوزراء مرات عديدة وكان شخصية مركزية في السياسة العراقية خلال العهد الملكي.

وفور انتشار خبر وجوده، بدأ الناس يركضون في الشوارع.

فقد أصبح القبض عليه هدفاً للثوار وقادة الثورة، وبدأت الجماهير تتجه إلى المكان الذي قيل إنه موجود فيه.

ركضنا مع الراكضين.

وصلنا إلى أحد أزقة البتاويين، القريبة من ساحة النصر، وهناك رأيت جمعاً كبيراً من الناس يشكلون دائرة حول جثة ملقاة على الأرض.

اقتربت.

كانت الجثة تعود إلى نوري السعيد.

كان المشهد صادماً لي، وأنا الطفل الذي لم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة ولم أشاهد جثة إنسان من قبل في حياتي.

كان الرجل الذي كنت أسمع اسمه في الأخبار، وأعرف أنه رئيس وزراء العراق، أصبح أمامي جثة هامدة ملقاة في الشارع.

كان يرتدي بنطال بيجامة زرقاء مخططة، وكان صدره وبطنه عاريين، وقد أصابته رصاصة في البطن. وقد خرج جزء من أمعائه من البطن.

كان الناس في حالة هياج شديد.

وفجأة جاء أحدهم بمطرقة حديدية وضرب بها رأس الجثة.

ثم أمسك شخص آخر بساقه، وبدأ بسحبه على الأرض، وسرعان ما شاركه آخرون.

وانطلقت الجماهير خلف الجثة وهي تهتف للثورة وضد رجال العهد الملكي.

وانطلقتُ أنا أيضاً مع الراكضين.

كنت أجري وراء الجثة المسحولة في شوارع بغداد، غير مدرك تماماً لما أشهده، لكنني أدركت أنني أمام حدث لا يشبه أي شيء رأيته في حياتي.

كان الشارع تحت أقدامنا ساخناً من شدة حرارة شهر تموز، وكان الإسفلت يبدو وكأنه يلين من شدة حرارة الجو.

وعندما وصلت الجماهير إلى ساحة النصر، بالقرب من مطعم علي شيش للدجاج المشوي، وصلت سيارة جيب عسكرية تحمل ضابطاً برتبة عالية مع جنوده.

تقدم الضابط نحو الجثة، وتأكد من شخصية الرجل المقتول على الأرض، ثم أطلق النار عليه مرة أخرى من رشاشه إنتقاما، قبل أن تنسحب السيارة.

بعد ذلك استمر سحل الجثمان في شوارع بغداد، بينما كانت الجماهير تركض خلفه في حالة من الهياج.

كنت واحداً من أولئك الذين يركضون خلف الجثة.

لم أكن يومها مؤرخًا ولا سياسيًا ولا شاهدًا يدوّن الأحداث؛ كنت طفلًا يرى بعينيه للمرة الأولى كيف يمكن لرجل كان بالأمس رئيساً لوزراء العراق أن ينتهي جثةً تُسحل في الشارع.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن نوري السعيد قُتل في أعقاب انقلاب 14 تموز الذي أطاح بالنظام الملكي، وأن جثمانه تعرض للإهانة في شوارع بغداد.

أول مشهد للموت

في عصر اليوم نفسه، كنت أتمشى في الشارع المتجه من ساحة الطيران نحو القصر الأبيض قرب مدارس الشرطة. لاحظت تجمعًا من الناس، فدفعني فضولي الطفولي إلى معرفة سبب تجمعهم.

اقتربت، وحشرت جسدي الصغير بين الرجال الواقفين، محاولًا الوصول إلى الأمام.

وعندما وصلت، رأيت لأول مرة في حياتي ثلاث جثث لرجال متفحمة، وقد اسودّت أجسادهم من شدة الاحتراق.

لم أكن أعرف من هم هؤلاء الرجال، ولم أعرف ماذا حدث لهم، وكل ما فهمته وأنا طفل أنني أمام جثث بشرية قُتل أصحابها وأُحرقت أجسادهم في خضم الأحداث التي كانت تعصف ببغداد.

جلست القرفصاء بجانب إحدى الجثث، مدفوعًا بفضول الطفل وخوفه في الوقت نفسه.

وفجأة تحركت الجثة.

انقلب صاحبها من ظهره إلى جانبه.

تجمدت في مكاني.

اعتقدت للحظة أن الميت قد عادت إليه الحياة.

صرخت صرخة رعب من أعماق نفسي ونهضت لأهرب، لكن فضولي دفعني مرة أخرى إلى النظر خلفي.

وهنا اكتشفت الحقيقة: كان أحد الواقفين قد أمسك بسلك مربوط بمعصم الجثة وسحبها، فانقلبت إلى جانبها.

كانت تلك اللحظة صدمة حقيقية بالنسبة إليّ، وبقي أثرها في نفسي فترة طويلة، حتى أصبحت الجثث المتفحمة تظهر لي في أحلامي .

رحلة شراء البنزين التي انتهت بالخوف

كان يفترض أن تكون رحلتنا بسيطة جداً.

كنا ذاهبين فقط لشراء «بطل» بنزين من أجل قداحة زوج خالتي.

لكننا عدنا إلى البيت من دون البنزين.

بعد كل تلك المشاهد المرعبة، لم يعد في داخلي ولا في داخل ابن خالتي أي رغبة في مواصلة رحلتنا.

كنا مرعوبين.

بقي زوج خالتي تلك الليلة من دون تدخين، لأننا عدنا إليه من دون قنينة البنزين التي خرجنا أصلاً لشرائها.

لكنني حملت معي شيئاً آخرَ لم أكن أعرف قيمته يومها: ذكرى لا يمكن أن تُمحى.

لقد رأيت في يومين متتاليين صوراً مختلفة للعنف والانهيار.

في اليوم الأول رأيت جثثاً متفحمة لا أعرف أصحابها، وطفلاً في داخلي يحاول أن يفهم كيف يمكن للميت أن يتحرك.

وفي اليوم التالي رأيت، بنفسي، جثمان نوري السعيد بعد مقتله، وشاهدت الناس يركضون خلفه وهو يُسحل في شوارع بغداد.

مرت السنوات.

كبر الطفل، وأصبحت مهندساً، وعشت بعد ذلك حروباً أخرى وأحداثاً أكثر قسوة.

لكن تلك الصور بقيت في مكان عميق من ذاكرتي.

وحين أعود إليها اليوم، أدرك أن بعض الأحداث لا تحتاج ان تكون هناك كتب تاريخ كي تثبت وجودها؛ يكفي أحياناً أن يكون هناك طفل صغير وقف في شارع من شوارع بغداد، ورأى بعينيه ما حدث، ثم حمل الصورة معه طوال حياته.

كنتُ طفلاً يوم تغير وجه بغداد، لكنني لم أنسَ ما رأيته.

ذكرياتي في البصرة ... مسقط رأسي

المقال الثاني

أحيانًا تخبئ لنا الذاكرة أشياء نظن أننا فقدناها، ثم تعيدها إلينا في لحظة لم نكن نتوقعها.

حدث ذلك معي عندما كنت أبحث في محرك البحث «غوغل» عن بعض مقالاتي القديمة التي سبق أن نشرتها في موقع «الحوار المتمدن». وبينما كنت أتنقل بين المقالات، عثرت بالمصادفة على مقال كنت قد كتبته في الثاني من أيار/مايو عام 2010 بعنوان:

»من ذكريات الماضي... في البصرة«

فتحت المقال، فإذا بي أجد أمامي صفحات من طفولتي وصباي في مدينة البصرة، المدينة التي وُلدْتُ فيها وعشت سنواتي الثمان عشرالأولى فوق تربتها وبين أنهارها وبساتينها.

هذا رابط المقال:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=213820

كانت المفاجأة أنني كنت قد نسيت هذا المقال تمامًا، ولم أكن أستحضره عندما بدأت، في السنوات الأخيرة، كتابة ذكرياتي.

لكنني عندما قرأته بعد ستة عشر عامًا، شعرت وكأنني فتحت نافذة قديمة تطل مباشرة على طفولتي.

وجدت فيه البصرة التي عشتها وأنا طفل: العشار، وسوق المغايز، ونهر الخندق، ومدرستي (الفيحاء الأهلية للراهبات)، وطرقات الحي، ولعب كرة القدم مع صبية المحلة، وصيد السمك على ضفاف النهر، وكورنيش شط العرب، والزوارق التي كانت تعبر إلى التنومة، والسينمات الصيفية، وليالي البصرة الحارة التي كنا نقضيها فوق سطوح المنازل.

ووجدت أيضًا تفاصيل صغيرة كنت قد نسيتها تمامًا، مثل المقالب التي كنا نمارسها نحن الصبية على المارة بعملة الربع دينار، حين كنت أربطها بخيط رفيع وأتركها في الطريق، ثم أسحبها بسرعة عندما يحاول أحد المارة التقاطها، فنضحك من دهشته وحيرته عندما تقفز العملة بالهواء فجأة.

ثم وصلت إلى السطور الأخيرة من المقال، فوجدت صورة جدتي العجوز وهي تحكي لنا الحكايات في الليل، بينما كنا ممددين على أسرّتنا، ننظر إلى السماء ونجومها والقمر، ونستمع إلى صوتها حتى يغلبنا النوم.

عندها أدركت أنني لم أعثر على مقال قديم فقط، بل عثرت على جزء من طفولتي كنت قد نسيته.

والأجمل أن هذه الذكريات لم أكتبها الآن، بعد مرور عقود طويلة، وإنما كنت قد سجلتها بنفسي عام 2010، عندما كانت الأحداث أقرب إلى ذاكرتي.

لقد حفظت تلك الصفحات صورة البصرة كما عشتها في طفولتي، لا كما يصفها المؤرخون أو كتب الجغرافيا، بل كما يراها طفل صغير يمشي إلى مدرسته، ويخترق سوق المغايز، ويلعب في أزقة الحي، ويذهب إلى النهر لصيد السمك، ويركب الزوارق إلى التنومة، ويجلس في السينما الصيفية، ثم يصعد في المساء إلى سطح البيت للنوم، ليستمع إلى حكايات جدته تحت سماء البصرة.

في البصرة... مسقط رأسي

ولدتُ في مدينة النخيل، البصرة الفيحاء، فينيسا العراق ونشأت في طفولتي وصباي قرب ضفاف شط العرب الجميل، وبين نهري العشار والخندق، وفي أحضان بساتين نخيل الخورة وابي الخصيب، وأشجار الأثل التي كانت تنتشر في المناطق الصحراوية خارج المدينة.

كانت البصرة تُسمى «ثغر العراق الباسم» أو «الفيحاء»، وهي المدينة المطلة على الخليج العربي، المشهورة بجمالها وطيبة أهلها وحلاوة تمورها وتنوع أصنافها. وكانت تتميز أيضًا بحرارة جوها صيفًا وارتفاع نسبة الرطوبة، وهي أمور كانت جزءًا من طبيعة الحياة البصرية التي اعتدنا عليها منذ طفولتنا.

وكانت البصرة تشبه، في بعض جوانبها، مدينة البندقية الإيطالية، لكثرة الأنهار والجداول المتفرعة من شط العرب، والتي كانت تتغلغل في أحيائها، فتخترق المدينة كالشرايين التي تغذي الجسد، وتروي بساتين النخيل المنتشرة في أرجائها.

ولدت في العشار، قلب البصرة النابض بالحياة، وهناك كانت أجمل ذكريات طفولتي وصباي.

كانت مدرستي الابتدائية، مدرسة الفيحاء الأهلية التابعة لراهبات الكلدان، تجاور نهر الخندق. وكنت أذهب إليها مشيًا، مخترقًا سوق العشار الرئيسي المعروف باسم سوق المغايز، حاملًا حقيبتي المليئة بكتب القراءة والحساب والعلوم ودفاتري المدرسية.

كان لنظام المدرسة طابع خاص بقي راسخًا في ذاكرتي حتى اليوم.

عندما يرن جرس الحصة الأولى، كان جميع التلاميذ ذكورا وإناثا يقفون في طوابير منتظمة حسب الصفوف، وتبدأ الصلاة التي تفتتحها الراهبة مديرة المدرسة، وكان الطلاب يرددون وراءها بقية مقاطع الصلاة التي حفظوها.

بعد ذلك، يقوم المعلمون والمعلمات بتفتيش التلاميذ والتأكد من نظافة الملابس والأحذية، وتمشيط الشعر وقص الأظافر، وكان مطلوبًا من كل تلميذ أن يحمل معه منديلًا أبيض نظيفًا.

بعد ذلك ندخل صفوفنا بانتظام، بدءًا من الصف الأول الابتدائي وحتى الصف السادس.

ثم يدخل المعلم أو المعلمة الصف، والمراقب يصيح: «قيام!»، فيقف الطلبة جميعًا احترامًا للمعلم، فيقول المعلم: «جلوس!»، فنجلس ونخرج الدفاتر والكتب والأقلام من الحقائب، ونبدأ يومنا الدراسي.

كانت تلك التفاصيل تبدو لنا آنذاك أمورًا عادية من نظام المدرسة، لكنها أصبحت، بعد مرور عشرات السنين، جزءًا من صور الطفولة التي بقيت عالقة في الذاكرة.

ألعاب الطفولة على ضفاف نهر العشار

في أوقات العصر، كنا نلعب كرة القدم مع أولاد المحلة في الأزقة القريبة من بيوتنا.

وأحيانًا كنا نقضي بعض الوقت على ضفاف النهر لصيد السمك، بينما كانت بعض النساء من العائلات الفقيرة يغسلن الملابس أو الصحون في ماء النهر، وخصوصًا عندما يرتفع منسوبه متأثرًا بظاهرة المد والجزر التي كانت معروفة في أنهار البصرة لقربها من الخليج العربي.

كانت حياة الناس بسيطة، وكانت الأنهار جزءًا طبيعيًا من حياتهم اليومية، لا مجرد منظر جميل نتأمله.

شط العرب... ذاكرة مدينة

وبسبب حرارة الجو الشديدة صيفًا، كانت العائلات البصرية تخرج إلى المتنزهات والحدائق المنتشرة على طول ضفاف كورنيش شط العرب، الذي كان من أجمل شوارع المدينة.

هناك كانت مياه شط العرب، والأمواج التي تتحرك بسبب مرور البواخر التجارية وهي تمخر عباب النهر، متجهة إلى ميناء المعقل أو خارجة منه.

وفي تلك الفترة، لم يكن في البصرة، كما أتذكرها، انتشار للمنقبات أو للمحجبات بالشكل الذي أصبح معروفًا في السنين اللاحقة. كانت النساء والفتيات المثقفات يرتدين أحدث

موديلات الملابس الأمريكية، بينما كانت بعض النساء يرتدين العباءة السوداء بوصفها لباسًا تقليديًا.

أما الرجال فكانوا يلبسون الدشداشة الطويلة بسبب حرارة الجو، وأثناء الدوام في الدوائر الرسمية كان الرجال يرتدون البنطلون والقميص وربطة العنق والجاكيت.وفي الصيف البنطلون والقميص بنصف كم.

وكان الناس يستمتعون بركوب الزوارق ذات المجاديف، أو القوارب الصغيرة ذات المحركات، للانتقال عبر النهر إلى الضفة الشرقية، حيث تقع مدينة التنومة، المشهورة بغابات النخيل وبساطة أهلها.

كانت تلك الرحلات الصغيرة تمنحنا شعورًا بالمتعة والمغامرة، رغم أنها كانت بالنسبة إلى أهل البصرة جزءًا عاديًا من حياتهم اليومية.

السينما الصيفية

ومن الأشياء التي كانت تميز الحياة في البصرة كثرة السينمات الصيفية، التي كانت تناسب جو المدينة الحار.

كانت العائلات والشباب يرتادونها ليلًا لمشاهدة الأفلام الأمريكية والمصرية والهندية القديمة.

كانت السينما عبارة عن ساحة مكشوفة بلا سقف، يجلس فيها المشاهدون على كراسٍ حديدية غير مثبتة بالأرض، وكان النسيم الليلي يهب على وجوهنا فيخفف من حرارة الجو.

لكن إذا صادف أن نزل المطر في أحد أيام الخريف، كان المشهد يتحول إلى حالة من الفوضى الجميلة؛ فينهض بعض رواد السينما مسرعين نحو الخارج، بينما يصر آخرون على إكمال الفيلم، فيضعون صحيفة ورقية فوق رؤوسهم أو يستخدمون أي شيء متاح يحميهم من المطر.

كانت تلك أيضًا من الصور الصغيرة التي بقيت حية في ذاكرتي.

شقاوة الطفولة

ولم تكن طفولتنا كلها هدوءًا وبراءة!

كان لنا نصيب من شقاوة الصبيان والمقالب التي كنا نضحك عليها كثيرًا.

أذكر أنني كنت أتفق مع بعض الصبية على عمل مقالب بالمارة في زقاق حارتنا.

كنت أربط طرف عملة ورقية من فئة ربع دينار بخيط رفيع يكاد لا يُرى وقت الغروب، ثم ألقي العملة في وسط الطريق، وأمسك بالطرف الآخر من الخيط من مكان بعيد، وأختبئ على مسافة تزيد على عشرة أمتار.

وما إن أرى أحد المارة ينحني لالتقاط الربع دينار، حتى أسحب الخيط بسرعة.

فتقفز العملة من مكانها وتبتعد، ويبقى الرجل الذي أراد التقاطها مشدوهًا وحائرًا بينما العملة الورقية تطير من بين يديه فجأة، بينما ننفجر نحن الصبية بالضحك من مخبئنا.

كانت شقاوة طفولية بسيطة، لكنها اليوم، بعد كل هذه العقود، أصبحت من الذكريات الطريفة التي تجعلني أبتسم كلما تذكرتها.

ليالي الصيف فوق السطوح

كان صيف البصرة شديد الحرارة، ولذلك اعتاد أهلها النوم فوق أسطح المنازل.

عند الغروب، كانوا يفرشون الأغطية والفرش فوق السطوح لتبرد بعد أن تكون قد امتصت حرارة الشمس طوال النهار، ثم يرشون أرضية السطح الترابية بالماء لتلطيف الجو.

وكانت ليالي الصيف فوق السطح لها طقوسها الخاصة.

نتناول الفواكه الصيفية الباردة، مثل البطيخ والرقي والعنب، قبل النوم، فتساعدنا على إطفاء العطش وتبريد أجسادنا بعد نهار حار.

ثم نستلقي على فراشنا، وننظر إلى السماء الصافية، إلى النجوم والقمر، بعيدًا عن ضجيج المدينة.

لم تكن هناك آنذاك تلفزيونات ولا وسائل تسلية كثيرة، سوى الراديو. ولهذا كنا نصعد إلى السطح للاسترخاء أو النوم، وخاصة في الجو الحار بعد حلول الظلام.

وكانت والدتي تستعمل «المهفة» المصنوعة من الخوص لتحريك الهواء حول وجهها.

وكانت جدتي العجوز تحلو لها تلك اللحظات، فتحكي لنا حكايات جميلة ونحن ممددون على أسرّتنا، نستمع إليها ونراقب نجوم السماء.

وكانت تغني لي هذه الأنشودة الطريفة وهي تنظر إلى القمر ليلًا، فتقول:

يا قمر، مد إيديك
وخذ صباح بإيديك
وأوصله عند والده
حتى يعطيك حلاوة إيدك (البقشيش)

وكان أبي يعمل في الكويت وقتها بعيدا عنا.

كانت حكاياتها تساعدنا على النوم، فنغفو ونحن نحلم بيوم جديد.

حين عادت الطفولة من أرشيف الماضي

عندما انتهيت من قراءة المقال القديم، شعرت بشيء يصعب وصفه.

كنت قد نسيت المقال، لكنني لم أنسَ ذكريات طفولتي.

كانت طفولتي تنتظرني مكتوبة في مكان ما، حتى عثرت عليها بعد ستة عشر عامًا.

كان ذلك المقال، الذي كتبته في عام 2010، بمثابة صندوق صغير حفظ لي صورًا لم أعد أتذكر أنني احتفظت بها أصلًا.

واليوم، وأنا أكتب هذه الصفحات، أشعر بالامتنان لذلك الكاتب الذي كنتُه قبل ستة عشر عامًا؛ فقد كتب عن طفولتي في وقت كانت الذاكرة أقرب إلى تلك الأيام، وترك لي شهادة أعود إليها الآن وأنا في الثمانين من عمري.

وهكذا اكتشفت أن الذاكرة ليست دائمًا ما نتذكره فقط، بل قد تكون أيضًا ما كتبناه ذات يوم ثم نسيناه.

وقد ننسى المقال، وننسى متى كتبناه، وربما ننسى بعض تفاصيله، لكن الأيام التي عشناها تبقى في أعماقنا، تنتظر أحيانًا كلمة أو صورة أو صفحة قديمة كي تستيقظ من جديد.

تعليقات القراء على المقال

عندما نشرت هذه الذكرى في «الحوار المتمدن» عام 2010، جاءت تعليقات القراء لتؤكد أن ذكريات الطفولة والبصرة لم تكن تعني لي وحدي، بل أيقظت ذكريات مشابهة لدى كثير ممن قرأوها.

كتب أحد القراء أن الذكريات هي «مستودع حياتنا»، وشكرني لأنني كتبت عن مسقط رأسي بإحساس أعاد الزمن البعيد إلى الحياة، وتمنى أن يرى البصرة من جديد في عزها وفرحها.

أما الكاتب الحكيم البابلي، فقد رأى أن الحديث عن الماضي أصبح متعة لكثير من أبناء المنطقة، وقال إن أجمل ما بقي للإنسان من تلك السنوات هو ذكرياته التي لا يستطيع أحد أن يسلبها منه.

وكانت القارئة ناهد أكثر تحديدًا، إذ أشادت بوصف براءة الطفولة والبصرة، وقالت إنها كانت تتمنى أن أروي المزيد من حكايات جدتي.

وهذا التعليق لفت انتباهي بصورة خاصة؛ لأن حكايات الجدة التي ذكرتها في نهاية المقال كانت في الحقيقة بوابة إلى عالم كامل من ذكريات الطفولة لم أكن قد سجلت تفاصيله آنذاك.

وكتب فارس أردوان ميشو أن تسجيل مثل هذه الذكريات يمكن أن يحفظ للأجيال الجديدة صورة المدن العراقية القديمة، بأبنيتها وشوارعها وناسها وحياتها اليومية، ودعا الكتاب من مختلف مدن العراق إلى تسجيل ما بقي في ذاكرتهم.

كما كتب قارئ آخر، كان يعرف مدارس الراهبات، أن وصف نظام مدرستي وما كان يجري فيها من عناية بالنظافة والانضباط أعاد إليه ذكرياته عن تلك المدارس.

ومن أجمل التعليقات أيضًا ما كتبه إياد بابان، إذ قال إن المقال أخذه إلى شط العرب وكورنيش البصرة وجمال المدينة وطيبة أهلها، وكأن الكلمات أعادت إليه صورة البصرة القديمة.

وبعد سنوات، كتب أحد القراء، وكان قد غادر البصرة في منتصف الثمانينيات، عن ذكرياته الخاصة في المعقل، وعن والده الذي كان يمسك بأيدي أبنائه ليشتري لهم «الدوردمة» من السوق الشعبي، ثم يعود بهم عبر الحديقة، بينما كان يسليهم بأنشودته الطفولية طوال الطريق.

أما قارئ من سلطنة عُمان، من مدينة صور الساحلية، فقد ربط ذكرياتي عن البصرة بذكريات جده، الذي كان من النواخذة ويسافر إلى البصرة لجلب التمور، ويحكي له عن جمال شط العرب وذكريات البحارة في المدينة.

وهكذا لم تعد التعليقات مجرد مجاملات على مقال قديم، بل أصبحت هي الأخرى شهادات صغيرة من ذاكرة جيل عاش العراق القديم ومدنه وحياته اليومية.

ولعل هذا ما يجعلني اليوم، بعد مرور ستة عشر عامًا، أكثر اقتناعًا بقيمة الاحتفاظ بهذه المقالات والعودة إليها.

فالمقال الذي كتبته عام 2010 حفظ شيئًا من طفولتي، وتعليقات القراء حفظت شيئًا من ذكرياتهم هم أيضًا.

وهكذا أصبحت صفحة واحدة من أرشيف قديم تحمل أكثر من ذاكرة: ذاكرتي التي كتبت، وذاكرة القراء الذين قرأوا وتذكروا.

حين عادت طفولتي من أرشيف الماضي

لم تكن المفاجأة في عثوري على المقال القديم أنني وجدت فيه وصفًا للبصرة التي عشت فيها فحسب، بل إنني وجدت أن تلك الصفحات استطاعت، بعد ستة عشر عامًا، أن تعيد إليّ تفاصيل كنت أظن أنها غابت إلى الأبد.

وقد كان أجمل ما في الأمر أن القراء الذين قرؤوا المقال عند نشره عام 2010 لم يكتفوا بالحديث عن البصرة، بل استعاد كل واحد منهم شيئًا من ذاكرته. أحدهم تذكر طفولته في أحيائها، وآخر استعاد شط العرب وكورنيشه، وثالث تمنى لو أنني أطلت الحديث عن حكايات جدتي.

وبعد قراءة تلك التعليقات اليوم، أدركت أن الذكريات الشخصية قد تتحول أحيانًا إلى مفتاح يفتح أبواب ذاكرة الآخرين.

لقد كنت أكتب عن طفولتي، لكن بعض القراء وجدوا طفولتهم بين السطور.

وهذا ما يجعل للذكريات قيمة تتجاوز صاحبها؛ فهي لا تحفظ حياتنا نحن فقط، بل تحفظ أيضًا شيئًا من حياة المدن التي عشنا فيها، ومن تفاصيل زمن قد لا يعرفه الجيل الجديد إلا من خلال ما نكتبه عنه.

لقد حفظت صفحات الحوار المتمدن عام 2010 صورة البصرة كما عشتها في طفولتي: مدينة الأنهار والنخيل، وسوق المغايز، والعشار، وشط العرب، والزوارق، والسينمات الصيفية، والأسطح التي كنا ننام فوقها في ليالي الصيف، وحكايات الجدات التي كانت تنقلنا إلى عوالم أخرى ونحن ننظر إلى النجوم.

واليوم، بعد ستة عشر عامًا، وجدت تلك الصفحات تنتظرني في أرشيف الماضي.

نسيتُ المقال، لكنني لم أفقد طفولتي؛ فقد كانت تنتظرني مكتوبة في مكان ما، حتى عثرت عليها بعد ستة عشر عامًا.

تدريب عسكري... أم استعراض سياسي؟

المقال الثاني

الالتحاق الإجباري مع كتائب الشباب

رابط المقال الأصلي في «الحوار المتمدن

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=219250

بعد كل هذه السنوات، عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام، أجد أن أكثر ما بقي في ذهني ليس التدريب العسكري نفسه، وإنما السؤال عن الغاية الحقيقية منه.

لا أتذكر اليوم التفاصيل السياسية التي كانت وراء استحداث «كتائب الشباب»، ولا أعرف ما الذي دفع السلطات في ذلك الوقت إلى إلزام طلبة الجامعات بهذا النوع من التدريب. لكنني أتذكر جيدًا أن التحاقي بالتدريب العسكري لم يكن تطوعيًا، وإنما كان إجباريًا.

كنا طلبة في جامعة بغداد، نستعد للتخرج ودخول الحياة العملية، ولم يكن أمامنا خيار في المشاركة أو عدم المشاركة. فقد حُجزت شهادات تخرجنا، ولم تُسلَّم إلينا إلا بعد إكمال التدريب العسكري.

وبعبارة أخرى، أصبح الحصول على شهادة التخرج مشروطًا بإنهاء ذلك التدريب، مهما كان رأي الطالب فيه.

لقد بدأت الحرب وانتهت خلال ستة أيام، وكانت النتيجة كارثية على الجيوش العربية المشاركة فيها. فقد تمكن الجيش الإسرائيلي من هزيمة القوات المصرية والسورية والأردنية، كما كانت هناك مشاركة عراقية في الحرب، وانتهت المعارك باحتلال أراضٍ عربية واسعة.

كانت الإذاعات العربية قبل الحرب تملأ آذاننا بالبيانات الحماسية والوعود الكبيرة، حتى أصبحت عبارات مثل «سنرميهم في البحر» جزءًا من الخطاب اليومي الذي نسمعه من وسائل الإعلام.

لكن عندما ظهرت نتيجة الحرب على أرض الواقع، تغير المشهد بسرعة.

الجيوش التي دخلت الحرب تراجعت، وانتهت المعارك خلال ستة أيام، ثم بدأ وقف إطلاق النار والمفاوضات.

ومع ذلك، وجدنا أنفسنا بعد انتهاء الحرب أمام تدريب عسكري لم نعرف ما الغاية الحقيقية منه.

وهنا ظل سؤال يرافقني منذ ذلك الوقت:

إذا كانت الحرب قد حُسمت خلال ستة أيام، فما الحاجة إلى تدريب طلبة الجامعة بعد انتهاء المعارك؟

هل كان المطلوب فعلًا إعدادنا لخوض حرب تحرير حقيقية، أم أن الغاية كانت تقديم صورة دعائية توحي بأن الشعب العراقي كله مستعد للقتال؟

لقد كنا في ذلك الوقت من خيرة طلبة الجامعة، نستعد للتخرج ودخول الحياة العملية، وكل واحد منا يحمل حلمًا بأن يستخدم علمه في خدمة بلده.

ومع ذلك، حُجزت شهادات تخرجنا حتى نرتدي الزي العسكري، ونقف في الطوابير، ونتعلم تفكيك بندقية إنكليزية قديمة، ثم نطلق خمس طلقات على هدف لا يكاد أحد منا يصيبه.

لم يكن ذلك التدريب، في تقديري، كافيًا ليجعل منا جنودًا قادرين على مواجهة جيش حديث ومدرب، ولم تكن تلك البندقية قادرة على تحويل طالب جامعي إلى مقاتل محترف خلال أسابيع قليلة.

لذلك بقي السؤال يؤرقني:

هل كانت الدولة تريد فعلًا أن تدربنا للدفاع عن الوطن، أم أن الأمر كان أقرب إلى استعراض تعبوي وسياسي، يمكن أن يضع خيرة طلبة الجامعات ومثقفيها في أتون حرب حقيقية، إذا اندلعت، دون أن يكونوا قد تلقوا التدريب العسكري الكافي؟

لا أملك اليوم جوابًا قاطعًا عن النيات التي كانت وراء ذلك القرار، ولا أريد أن أنسب إلى المسؤولين في ذلك الوقت دوافع لا أملك عليها دليلًا.

لكنني أعرف شيئًا واحدًا من تجربتي الشخصية :لقد أُجبرنا على التدريب، وحُجزت شهادات تخرجنا حتى أتممناه، ثم أُعيدت إلينا الشهادات بعد خمسة وأربعين يومًا من التدريب.

خرجنا من تلك التجربة كما دخلناها؛ طلبة جامعيين، لا جنودًا محترفين.

أما الحرب التي قيل لنا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إننا نستعد لها، فقد كانت قد انتهت منذ زمن.

ومنذ ذلك اليوم تعلمت درسًا بقي معي طويلًا:

ليست كل تعبئة وطنية عملًا وطنيًا، وليست كل بدلة عسكرية دليلًا على وجود جيش مستعد للحرب.

أحيانًا يكون الاستعراض أسهل من مواجهة الحقيقة.

إيفادي إلى أرض الموت

المقال الثالث

رابط المقال الأصلي في «الحوار المتمدن»

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=214950

كان من المعتاد في نظام الوظائف الحكومية أن يُوفد الموظف داخل البلاد أو خارجها لأغراض الدراسة أو التدريب، أو للتفاوض وإنجاز العقود، أو لتنفيذ مهمة فنية، أو لحضور مؤتمر أو ندوة، أو لأي عمل يمكن أن يحقق فائدة للدائرة والدولة.

لكن أن يُوفد مهندس مدني إلى منطقة تدور فيها معارك شرسة، لإنجاز عمل فني يمكن تأجيله أو الاستغناء عنه، ومن دون أن تكون هناك ضرورة حقيقية لإنجازه في ذلك الوقت، فهذه كانت واحدة من المفارقات الغريبة التي عشتها في عراق الحروب.

كنت أعمل مهندسًا في إحدى دوائر الدولة في بغداد، وكانت دائرتنا قد أُشركت في واجبات إسناد المجهود الحربي خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، رغم أنها دائرة مدنية لا علاقة مباشرة لها بالعمليات العسكرية.

وفي 11 آذار/مارس 1985، اندلعت معارك عنيفة في منطقة الحدود العراقية ـ الإيرانية قرب محافظة ميسان، وعُرفت تلك المعارك باسم «تاج المعارك»، لشدة القتال وكثرة الخسائر التي تكبدها الطرفان.

كان الجيش الإيراني قد تقدم داخل الأراضي العراقية، وأصبحت قذائف مدفعيته تصل إلى جانبي الطريق العام بين العمارة والبصرة. وكانت مناطق مثل قلعة صالح والكسارة تتعرض للقصف، حتى اضطر سكانها إلى مغادرة بيوتهم والابتعاد عن مناطق القتال، بينما استغل الجنود بعض المنازل التي تركها أصحابها للسكن فيها.

وفي صباح أحد أيام تلك المعارك، اتصل بي المدير العام للشركة وأبلغني أن أمرًا صدر بإيفادي، مع مهندس ميكانيك، إلى العمارة، بناءً على برقية وصلت ليلًا من ممثل الوزارة هناك.

كانت المهمة إصلاح الأضرار التي أصابت ناظم الكسارة الملاحي نتيجة القصف المدفعي الإيراني.

قال لي المدير العام إن سيارة «لاندكروز» ستكون تحت تصرفي، وإن علينا السفر في ذلك اليوم من دون تأخير.

لم يكن أمامي مجال للنقاش. كانت البلاد في حالة حرب، وكانت لغة ذلك الزمن تجعل تنفيذ الأوامر جزءًا من الواجب الوطني، مهما كانت طبيعة المهمة أو درجة خطورتها.

أخذت عدة العمل، وانطلقت مع زميلي المهندس فوزي من بغداد باتجاه العمارة، ونحن نستمع طوال الطريق إلى الأناشيد والبيانات العسكرية التي كانت تبثها الإذاعة، ومنها النشيد الحماسي الذي كان يتردد:

»ها يا أهل العمارة... هاي أجمل بشارة
اليوم كلنا جنود... عن الحدود نذود«...

وصلنا إلى العمارة ليلًا، وسجلنا مباشرتنا لدى ممثل الوزارة. وهناك أُبلغنا بأن موقع ناظم الكسارة مهم للجيش في تلك الظروف، وأن علينا إصلاح الأضرار وإعادة القابلوات الكهربائية المقطوعة وتشغيل بوابات الناظم بأسرع وقت ممكن.

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى الموقع لإجراء الكشف الفني ووضع خطة العمل.

كنت يومها مندفعًا لإنجاز المهمة، وأتعامل معها باعتبارها واجبًا وطنيًا ينبغي إتمامه مهما كانت الظروف.

لكن الطريق إلى موقع العمل كان أشبه بالطريق إلى جبهة قتال.

الخنادق منتشرة على جانبي الطريق، والدبابات والمدرعات والمدفعية في حالة استعداد، والجنود ينتظرون أي تقدم للقوات الإيرانية.

أما القذائف الثقيلة فكانت تتساقط أمامنا وخلفنا وفي المناطق المحيطة بنا.

لم أكن يومها مهندسًا ذاهبًا إلى موقع عمل اعتيادي، بل كنت أدخل منطقة حرب حقيقية.

بعد وصولي إلى الناظم وإجراء الكشف، تبين أن المنشأة تضم معدات كهربائية وهيدروليكية تستخدم لفتح وإغلاق بوابات حديدية كبيرة تمتد عبر النهر لتنظيم الممر الملاحي ومرور القوارب النهرية.

بدأت العمل خلال النهار، وأعود في المساء إلى العمارة للمبيت.

كنت أحاول إنجاز المهمة بأسرع ما يمكن، ليس فقط لأن الناظم كان مطلوبًا تشغيله، وإنما لأن البقاء في تلك المنطقة تحت القصف كان يعني أن حياتنا يمكن أن تنتهي في أي لحظة.

كنت أقول في نفسي إنني قد أعود إلى بغداد، وقد لا أعود، وقد أسجل في النهاية ضمن قائمة الخسائر، ولا يبقى من قصتي سوى عبارة: » الله يرحمه.«

لحظة الخطر

وفي أحد الأيام، بينما كنت في موقع العمل، لاحظت أن الجنود القريبين منا يرتدون الأقنعة الواقية من الغازات.

وصلت إليهم برقية من قيادة الفيلق تحذر من احتمال تعرض القطعات لضربة كيميائية.

نظرت إلى زميلي فوزي، ثم إلى الجنود الذين كانوا يحمون أنفسهم بالأقنعة.

أما نحن فكنا بملابسنا المدنية العادية، ومن دون أي قناع أو وسيلة حماية.

لم يسأل عنا أحد، ولم يزودنا أحد بوسائل الوقاية، ولم يطلب منا أحد مغادرة الموقع.

كان كل شخص مشغولًا بحماية نفسه.

قلت لزميلي: يا روح ما بعدك روح... سنموت هنا ولا أحد يسأل عنا.

وقررنا مغادرة الموقع فورًا والعودة إلى العمارة، ثم نرجع في اليوم التالي لنرى ماذا حدث.

وهكذا فعلنا.

وفي صباح اليوم التالي، عندما عدنا إلى الموقع، شاهدنا مشهدًا لا يمكن أن أنساه.

كانت بعض دبابات وجنود وحدات الحرس الجمهوري التي كانت متمركزة بالقرب من موقع عملنا قد تعرضت لهجوم ليلي.

تناثرت أجزاء الدبابات في المكان، وبقيت على الطريق الترابي بقايا ملابس الجنود المحترقة وأجزاء من أشلاء الجثث.

كان ذلك الطريق نفسه هو الطريق الذي كنا نسلكه كل يوم.

عندها أدركت كم كانت المسافة بين الحياة والموت قصيرة في تلك المنطقة.

المفاجأة التي غيّرت معنى المهمة

واصلت عملي حتى أصلحت الأضرار التي أصابت الأجهزة الكهربائية وأعدتها إلى حالة التشغيل.

لكن عندما حاولنا تشغيل بوابات الناظم، اكتشفت أن البوابات لا تتحرك من مكانها.

استفسرت من المسؤولين في قسم صيانة النواظم في العمارة، فجاءت الإجابة التي كانت بالنسبة لي أكثر إثارة من القصف نفسه:

معدات الناظم لم تُشغّل منذ أكثر من خمس سنوات.

وخلال هذه السنوات تراكمت عشرات الأطنان من الطين أمام البوابات، حتى بلغ ارتفاعها نحو مترين، وأصبحت البوابات عاجزة عن الحركة.

وكان تشغيلها يحتاج إلى تنظيف الموقع وكري النهر وإزالة الأطيان المتراكمة.

هنا بدأت أطرح على نفسي السؤال الذي بقي يرافقني طويلًا:

لماذا أُرسلت إلى هنا أصلًا؟

لقد أصلحت الأعطال الكهربائية التي أحدثها القصف، وأعدت الأجهزة إلى حالة التشغيل، لكن الناظم نفسه لم يكن قابلًا للعمل بسبب تراكم الطين أمام بواباته.

أي أن المشكلة الأساسية لم تكن في الأجهزة الكهربائية التي أُرسلت لإصلاحها، وإنما في منشأة متوقفة منذ سنوات وتحتاج إلى أعمال أخرى لا علاقة لمهمتي بها.

والأكثر غرابة أن هناك دائرة مختصة بصيانة النواظم والسدود في العمارة، وفيها مهندسون كهربائيون وفنيون، وكان هذا العمل من صميم اختصاصها.

ومع ذلك أُرسل مهندس مدني من بغداد إلى منطقة قتال تحت القصف لإنجاز مهمة لم تحقق النتيجة المطلوبة.

هل كانت دماؤنا رخيصة؟

لم أكن نادمًا على أداء واجبي في ظروف الحرب.

فلو كان العمل ضروريًا فعلًا، وكانت هناك فائدة حقيقية ستعود على الناس أو على المجهود الحربي، لاعتبرت المخاطرة جزءًا من مسؤوليتي المهنية والوطنية.

لكن الذي آلمني هو أن حياة الإنسان أصبحت أحيانًا أقل قيمة من رغبة مسؤول في تسجيل إنجاز إداري.

قد يرسل مسؤول موظفًا إلى منطقة خطرة لكي يقول في النهاية إنه أنجز مهمة أو أصلح منشأة، وربما يحصل بسبب ذلك على مكافأة أو تقدير أو ترقية، بينما يتحمل الموظف البسيط الخطر الحقيقي.

وإذا قُتل الموظف، فكل ما يحتاجه الأمر هو تسجيل اسمه ضمن «الخسائر.«

أما المهمة غير الضرورية، فتُنسى.

قدمت تقريرًا إلى المدير العام وممثل الوزارة عن الأعمال التي أنجزتها، ووضحت أن الناظم لم يعمل بسبب تراكم الأطيان أمام البوابات.

ورغم كثرة المذكرات التي رفعتها، لم يأتِ أحد ليسأل عن تشغيل الناظم أو عن تنظيف الممر الملاحي.

وبقي الناظم مهجورًا بعد ذلك سنوات أخرى.

وهكذا ظل السؤال يطاردني:

لماذا أُوفدت من بغداد إلى «أرض الموت» وسط معركة حقيقية، إذا كان العمل الذي أُرسلت لإنجازه لن يحقق فائدته بسبب مشكلة أخرى معروفة وموجودة منذ سنوات؟

لم تكن المشكلة في استعدادنا للمخاطرة من أجل الوطن.

المشكلة كانت في استهانة بعض المسؤولين بحياة الإنسان، وفي إرسال موظف إلى الخطر من أجل مهمة لم تُدرس حاجتها الحقيقية قبل إصدار الأمر.

وقد بقيت تلك الحادثة واحدة من أكثر ذكرياتي إيلامًا من سنوات الحرب.

فأنا لم أكن جنديًا يحمل سلاحًا في تلك المعركة، بل كنت مهندسًا مدنيًا أُرسل لأداء واجب فني.

ومع ذلك وجدت نفسي وسط الخنادق والدبابات والقصف، ورأيت بأم عيني بقايا الدبابات وأشلاء الجنود الذين كانوا قبل ساعات أحياء.

وكل ذلك من أجل ناظم اكتشفت بعد وصولي أن معداته لم تعمل منذ أكثر من خمس سنوات، وأن بواباته لا يمكن أن تتحرك قبل إزالة أطنان الطين المتراكمة أمامها.

ومنذ ذلك اليوم بقي سؤال واحد يلح عليّ:

هل كانت دماؤنا رخيصة إلى هذا الحد؟

شهادات القراء على القصة

عندما نشرت هذه الذكرى في «الحوار المتمدن» عام 2010، تلقاها عدد من القراء الذين عاشوا الحرب العراقية ـ الإيرانية، ووجد بعضهم في تفاصيلها صورة لما مروا به هم أيضًا.

كتب أحد القراء أن نتيجة إرسالنا إلى ذلك الموقع كانت «مضحكة مبكية»، بعدما تبين أن معدات الناظم لم تكن قد شُغّلت منذ أكثر من خمس سنوات، بينما كنا قد أُرسلنا إلى منطقة القتال لإصلاحها تحت القصف.

وكتب قارئ آخر، وكان قد خدم في إحدى وحدات الجيش خلال المعركة نفسها، عن مشاهد أكثر قسوة، وروى أنه أصيب بجروح أثناء هجوم مضاد، وشاهد أعدادًا كبيرة من جثث الجنود العراقيين والإيرانيين في منطقة القتال. ثم ختم شهادته بسؤال يشبه السؤال الذي طرحته في نهاية قصتي:

»من يستهين بحياة الشعب ومستقبل الوطن، هل يهتم بحياة فرد؟«

وقال قارئ ثالث بصراحة:

»نعم سيدي الكريم، دماؤنا رخيصة وما زالت«،

معتبرًا أن أرواح الناس كانت رهناً بقرارات قادة الحروب.

أما إحدى القارئات فقد لخصت المفارقة التي عشتها بكلمات مؤثرة، إذ قالت إن إرسال الشباب إلى مثل هذه المعارك كان يعني تحويلهم إلى وقود للحروب، وتساءلت عن جدوى المهمة بعد أن اكتشفت أن معدات الناظم لم تعمل منذ سنوات، وأن الأطيان المتراكمة كانت تمنع البوابات من الحركة.

وكان من أكثر التعليقات دلالة تعليق قارئة أخرى اقترحت عليّ أن أجمع هذه الذكريات في كتاب يحكي جانبًا من الحرب، لكي تطلع الأجيال القادمة على تاريخ بلادها.

وقد بقي هذا الاقتراح في ذاكرتي، وربما كان له أثره في أنني، بعد سنوات طويلة، عدت إلى مقالاتي القديمة وبدأت أجمع ما فيها من ذكريات وتجارب، لأعيد كتابتها ضمن هذا الكتاب.

هذه التعليقات لا أوردها باعتبارها جزءًا من قصتي، وإنما باعتبارها شهادات معاصرة على أثرها في القراء عندما نُشرت لأول مرة. فهي تُظهر أن ما عشته لم يكن تجربة فردية معزولة، بل كان جزءًا من معاناة عاشها كثير من العراقيين خلال سنوات الحرب.

صباح يوسف

الالتحاق القسري في قاطع الجيش الشعبي

المقال الرابع

حين وجدتُ ذاكرة نسيتها منذ ستة عشر عامًا

أحيانًا تخبئ لنا الذاكرة مفاجآت لا نتوقعها، وقد تكون أجمل هذه المفاجآت أن نعثر، بعد سنوات طويلة، على شاهد مكتوب يؤكد لنا ما بقي في ذاكرتنا من أحداث عشناها.

في عام 2026، كنت أراجع وأكتب بعض ذكرياتي عن فترة خدمتي القسرية في الجيش الشعبي، وهي فترة عشتها خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية قبل عقود طويلة. كنت أعتمد في كتابة هذه الذكريات على ما بقي في ذاكرتي من أحداث ومواقف، وبعضها كان يعود إليّ تدريجيًا بعد سنوات طويلة من نسيانه.

وبينما كنت أبحث في موقع «الحوار المتمدن» عن بعض مقالاتي القديمة التي سبق أن نشرتها هناك، ظهر أمامي عنوان مقال لم أتذكره. فتحت المقال، وكانت المفاجأة.

كان عنوانه:

»من ذكريات الماضي... في قاطع الجيش الشعبي«

وكنت قد كتبته ونشرته في «الحوار المتمدن» بتاريخ 4 أيار/مايو 2010، أي قبل ستة عشر عامًا من إعادة كتابتي لهذه الذكريات.

والأغرب من ذلك أنني كنت قد نسيت المقال تمامًا، ولم أكن قد رجعت إليه عندما بدأت في عام 2026 كتابة ذكرياتي عن تلك المرحلة.

قرأت المقال وكأنني أقرأ شهادة كتبها شخص آخر عن حياتي، ثم بدأت أكتشف شيئًا أدهشني: ما كتبته في عام 2010 كان يتطابق بصورة كبيرة مع ما استعادته ذاكرتي في عام 2026.

رابط المقال الأصلي:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=214004

كانت الأحداث الأساسية متطابقة؛ فقد سجلت في المقال القديم أنني سُقت مع مجموعة من المهندسين والفنيين إلى أحد قواطع الجيش الشعبي، ثم أُرسلنا إلى معسكر النهروان

للتدريب، وبعد انتهاء التدريب نُقلنا إلى جنوب العراق، حيث كانت مهمتنا حراسة أنبوب نفط الرميلة، وبقينا هناك تسعة أشهر كاملة في ظروف صحراوية قاسية.

وتطابقت أيضًا تفاصيل أخرى كنت قد نسيتها تمامًا، ومنها حادثة المولدة الكهربائية.

كنت مسؤولًا عن تشغيل بدالة الهاتف في مقر الآمرية، وكان عليّ أن أبقى في الخدمة حتى وقت متأخر من الليل. وبعد أن يذهب آمر القاطع إلى النوم، كان عليّ أن أذهب إلى مكان المولدة البعيد عن الخيام لإطفائها.

وكانت العودة ليلًا في الصحراء أمرًا مخيفًا، بسبب الظلام الدامس وانتشار الأفاعي والعقارب السامة. لذلك، وبحكم طبيعتي كمهندس، لم أكتفِ بالشكوى من المشكلة، وإنما بحثت عن حل لها.

مددت سلكًا كهربائيًا من المولدة إلى خيمتي، وأنهيته بزر أستطيع الضغط عليه من داخل الخيمة. وهكذا أصبحت قادرًا على إيقاف المولدة وأنا في فراشي، دون أن أضطر إلى الخروج ليلًا ومواجهة مخاطر الصحراء.

كانت حادثة صغيرة في ظاهرها، لكنها بالنسبة إليّ كانت تحمل معنى أكبر بكثير. فقد وجدت نفسي، حتى وأنا مساق قسرًا إلى الصحراء، أتعامل مع المشكلة بالطريقة التي اعتدت عليها طوال حياتي :أبحث عن حل هندسي لها.

من العمل الهندسي إلى الجيش الشعبي

في عام 1986 كنت أعمل موظفًا في إحدى دوائر الدولة، وفي منصب فني مهم. وكانت دائرتنا تعمل لخدمة وإسناد المجهود الحربي، من خلال صيانة وإدامة المعدات الهندسية التي تقوم بحفر الخنادق وإقامة السواتر الترابية، إضافة إلى نصب وصيانة وتشغيل مضخات الماء الضخمة التي كانت تستخدم لإغراق بعض المناطق بالمياه بهدف إعاقة تقدم القوات الإيرانية.

لكن حاجة الدائرة إلى المهندسين والفنيين لم تمنع السلطة من سوقنا قسرًا إلى الجيش الشعبي.

طلب المدير العام للشركة من ضابط أمن الدائرة أن يجمع كل موظف إداري أو فني، مهما كان منصبه أو اختصاصه، ممن لم يلتحق سابقًا بالخدمة العسكرية أو بقواطع الجيش الشعبي. وكنت واحدًا من بينهم.

في ذلك اليوم سُقنا بسيارة إلى مقر قاطع أبي جعفر المنصور في بغداد، وكنا نحو عشرين مهندسًا وفنيًا من اختصاصات مختلفة.

أعطونا الملابس العسكرية، وأرادوا إرسالنا مباشرة إلى معسكر النهروان للتدريب، من دون أن نتمكن حتى من إبلاغ عوائلنا.

توسلنا إلى المسؤولين أن يمنحونا أربعًا وعشرين ساعة فقط، حتى نتمكن من إخبار عوائلنا وجلب بعض حاجاتنا الشخصية، مثل الملابس وأدوات الحلاقة وغيرها. وبعد إلحاح، سمحوا لنا بذلك على مضض.

في اليوم التالي نُقلنا إلى معسكر النهروان.

كان التدريب عسكريًا في شكله، لكنه لم يكن كافيًا لإعدادنا لمواجهة حرب حقيقية. تدربنا على المشي في الطابور، وعلى الأوامر العسكرية مثل: «إلى الأمام سر»، «إلى الخلف در»، «إلى اليمين در»، «مكانك قف.«

وبقينا أسبوعين تقريبًا نتدرب على استعمال بندقية الكلاشنكوف الروسية. أطلق كل واحد منا عددًا قليلًا من الطلقات للتدريب، ولم أصب الهدف سوى بطلقتين من أصل عشر.

ولم يكن ذلك غريبًا، فأنا لم أكن قد خدمت في الجيش سابقًا، لأنني كنت من الذين دفعوا البدل النقدي.

وبعد انتهاء التدريب أجرينا ما سُمّي «مسيرة التحمل»، فسِرنا مسافة نحو ستة كيلومترات ونحن نحمل السلاح والمعدات العسكرية ونرتدي الخوذ.

ثم بدأت المرحلة التي لم نكن نعرف إلى أين ستأخذنا.

الرحلة إلى الصحراء

بعد انتهاء التدريب نُقلت مجموعة كبيرة منا بحافلات إلى جهة لم نكن نعرفها. استمرت الرحلة أكثر من ست ساعات حتى وصلنا إلى منطقة قريبة من البصرة.

هناك كانت بانتظارنا شاحنات الجيش الشعبي، وكانت بعضها مغطاة بالجادر وبعضها الآخر مكشوفًا بسبب تمزق أغطيتها.

أُمرنا بالصعود إليها، وتكدس نحو عشرين رجلًا في كل شاحنة.

سارت بنا الشاحنات ساعات طويلة في طريق صحراوي وعر غير معبد، باتجاه المنطقة الحدودية العراقية ـ السعودية ـ الكويتية.

كانت الشمس تلفح وجوهنا، والعرق والغبار والرمال تغطي أجسادنا، وكنا نتقافز داخل الشاحنات مع كل حفرة أو مطب في ذلك الطريق القاسي.

وبعد مسير طويل، بدأ توزيعنا على قواعد الجيش الشعبي المنتشرة على طول أنبوب نفط الرميلة المتجه إلى الأراضي السعودية.

وهنا عرفنا أخيرًا سبب إرسالنا إلى تلك المنطقة.

لم نُرسل إلى الجبهة لمواجهة القوات الإيرانية، وإنما كانت مهمتنا حراسة أنبوب النفط.

شعرنا بشيء من الارتياح؛ فهذه المهمة، مهما كانت قاسية، كانت أهون من مواجهة القصف والرصاص والأسر.

لكن السؤال الذي بقي في ذهني حتى بعد عودتي كان أكبر من مجرد الخوف من الحرب:

ما الفائدة من اقتلاع مهندس أو طبيب أو أستاذ جامعي من عمله، وإرساله إلى الصحراء لحراسة أنبوب نفط، بينما يمكن أن يقدم خبرته في مصنعه أو جامعته أو مؤسسته خدمة أكبر بكثير لبلده؟

مهندسون في الصحراء

مع مرور الوقت اكتشفت أن قاطع أبي جعفر المنصور الذي أنتمي إليه لم يكن يضم جنودًا عاديين فقط.

كان بيننا عدد كبير من أصحاب الشهادات والكفاءات العلمية؛ أطباء ومهندسون وكيميائيون وفيزيائيون وأساتذة جامعات وحملة شهادات عليا، إضافة إلى الفنيين والموظفين الذين جُمعوا من دوائرهم ومؤسساتهم وسِيقوا إلى هذه المواقع قسرًا.

كان هؤلاء الرجال يمتلكون خبرات علمية وفنية يمكن أن تحتاج إليها المصانع والجامعات والمؤسسات العراقية، لكنهم وجدوا أنفسهم يحملون بندقية كلاشنكوف ويحرسون أنبوب نفط مدفونًا على عمق أمتار تحت الأرض.

وكانت المفارقة مؤلمة.

بل إن بعض القراء الذين قرؤوا مقالي القديم عام 2010 كتبوا لي تجاربهم المشابهة. أحدهم ذكر أنه كان مع مجموعة من العاملين في المجال الطبي، ومن بينهم كبار السن وموظفون يعانون من أمراض، وقد سِيقوا أيضًا إلى مواقع عسكرية قاسية. وكتب آخرون عن انتقالهم إلى مواقع قريبة من الجبهة وعن الخوف الذي عاشوه هناك.

كانت تلك الشهادات تؤكد أن تجربتي لم تكن حالة فردية، وإنما كانت جزءًا من تجربة أوسع عاشها كثير من العراقيين خلال تلك الحرب.

تسعة أشهر بين الرمال والأفاعي

بقينا تسعة أشهر كاملة في الصحراء.

كانت الحرارة شديدة نهارًا، والبرد قاسيًا ليلًا، وكانت العواصف الرملية تضرب المنطقة من وقت إلى آخر.

وكان الماء من مشكلاتنا المستمرة؛ فقد كنا ننتظر وصول صهريج الماء، وكان الماء في كثير من الأحيان مالحًا، كما كان الصهريج يتعطل أحيانًا ليومين أو ثلاثة.

لكن أكثر ما كان يثير خوفنا هو الأفاعي والعقارب التي كانت تنتشر في المنطقة.

كنا نعيش في ظروف تجعل حتى النوم يحتاج إلى الحذر. فقد كانت بعض الزواحف تتسلل أحيانًا إلى الأحذية العسكرية عندما نخلعها ليلًا، فنجدها في الصباح وقد وجدت في الحذاء مكانًا دافئًا تختبئ فيه.

أما الطريق إلى الإجازة والعودة منها، فكان عذابًا آخر. وكانت بعض الشاحنات تسير بنا ساعات طويلة في الصحراء، فنصل وقد غطى الغبار وجوهنا وأجسادنا، حتى لا يظهر من الوجه إلا العينان.

ولهذا كان بعضنا يفضل أحيانًا عدم النزول في الإجازة لزيارة أهله، حتى لا يضطر إلى تحمل عذاب الطريق مرة أخرى.

ولم نرَ خلال مهمتنا عدوًا إيرانيًا واحدًا، ولم نطلق رصاصة واحدة، ولم نسمع دوي المدافع أو انفجار القنابل كما كان يحدث في الجبهة.

كان عدونا في تلك الصحراء شيئًا آخر:

العطش، والعواصف الرملية، والحر والبرد، والأفاعي والعقارب، والخوف من المجهول.

حتى في الصحراء بقيتُ مهندسًا

كان واجبي الأساسي في القاطع أن أكون مسؤولًا عن تشغيل بدالة الهاتف.

وكان عليّ أن أبقى في الخدمة حتى وقت متأخر من الليل، بانتظار انتهاء آمر القاطع من القراءة والمطالعة، فقد كان يحمل شهادة الماجستير في الفيزياء، وكان يحب القراءة حتى ساعات متأخرة.

وبعد أن يقرر النوم، كان يتصل بي هاتفيًا، فأذهب إلى نهاية حدود الآمرية لإطفاء المولدة الكهربائية التي كانت تزود مقرنا بالكهرباء.

وكانت تلك الرحلة القصيرة ليلًا تمثل بالنسبة إليّ مشكلة حقيقية.

فالظلام كان دامسًا، والصحراء مليئة بالأفاعي والعقارب، والخروج من الخيمة والعودة إليها في تلك الساعة لم يكن أمرًا آمنًا.

وهنا تصرفت كما يتصرف المهندس عندما يواجه مشكلة.

لم أبحث عن طريقة تجعلني أكثر شجاعة في مواجهة الأفاعي والعقارب، بل بحثت عن طريقة تجعلني لا أضطر إلى مواجهتها أصلًا.

مددت سلكًا كهربائيًا من المولدة إلى خيمتي، وأنهيته بزر.

ومنذ ذلك الوقت، عندما يتصل بي آمر القاطع ويطلب إطفاء المولدة، لم أعد بحاجة إلى الخروج من خيمتي. كنت أضغط على الزر، فتتوقف المولدة، وأعود إلى النوم بأمان.

قد تبدو هذه الحادثة بسيطة، لكنها بقيت في ذاكرتي لأنها تختصر جانبًا من شخصيتي.

حتى عندما كنت مساقًا قسرًا إلى مكان لا أريد أن أكون فيه، وحتى عندما كنت أحمل السلاح بدلًا من أدوات الهندسة، بقي عقلي يعمل بالطريقة نفسها:

مشكلة، ثم حل.

ماذا كانت خدمتي الحقيقية؟

بعد سنوات طويلة من انتهاء تلك التجربة، ما زلت أطرح على نفسي السؤال نفسه:

هل كنت أنا وزملائي من المهندسين والأطباء وأساتذة الجامعات وأصحاب الكفاءات العلمية نقدم خدمة أكبر لو بقينا في مصانعنا وجامعاتنا ودوائرنا، أم أن حراستنا لأنبوب نفط مدفون في عمق رمال الصحراء كانت هي الخدمة الأفضل للوطن؟

كان الأنبوب، على أي حال، تحت مراقبة وحماية طائرات القوة الجوية التي كانت تمر فوق المنطقة للمراقبة مرتين كل يوم.

ولم أجد جوابًا مقنعًا لهذا السؤال.

لكنني أدركت شيئًا واحدًا: الحرب لا تهدر الأرواح والمال والسلاح فقط، بل قد تهدر أيضًا العقول والخبرات عندما توضع الكفاءات في المكان الخطأ.

بعد ستة عشر عامًا

عندما عثرت على مقالي القديم في عام 2026، شعرت أنني لم أعثر على مقال منشور على الإنترنت فحسب، بل عثرت على وثيقة من ذاكرتي.

لقد نسيت أنني كتبت ذلك المقال، لكنني لم أنسَ ما عشته.

والأغرب أنني عندما كتبت ذكرياتي من جديد بعد ستة عشر عامًا، لم أكن قد رجعت إلى المقال القديم، ومع ذلك جاءت الروايتان متطابقتين في جوهرهما، وفي كثير من تفاصيلهما.

كان نص عام 2010 شاهدًا مكتوبًا من الماضي، بينما كانت صفحات عام 2026 محاولة لاستعادة التجربة من ذاكرة رجل ابتعد عن أحداثها عقودًا طويلة.

وبين النصين اكتشفت شيئًا جميلًا:

قد ننسى أننا كتبنا عن حياتنا، لكننا لا ننسى بالضرورة ما عشناه.

وربما كانت أجمل مفارقة في تلك الذكرى أنني، حتى وأنا مساق قسرًا إلى الصحراء، لم أتخلَّ عن طبيعتي كمهندس.

فكلما واجهتني مشكلة، بحثت لها عن حل.

وهكذا بقيت تلك الحادثة الصغيرة، الخاصة بزر إيقاف المولدة، شاهدًا على شيء أكبر في حياتي:

أينما وُجدت المشكلة، كان عقلي يبحث عن الحل.

صباح يوسف إبراهيم

18/8/2026

شهادات من قراء المقال بعد نشره عام 2010

لم تكن هذه الذكرى مجرد تجربة شخصية، فقد أعادت كلماتها إلى عدد من القراء ذكرياتهم الخاصة عن الحرب والخدمة القسرية.

كتب القارئ فيصل البيطار أن ما عاشه العراقيون كان حربًا عبثية، وأشار إلى أن بعض الناس كانوا يُدفعون إلى أماكن أشد خطورة، معتبرًا أن العراقيين لم يكن لهم في تلك الحرب «لا ناقة ولا جمل.»

أما مصلح المعمار، فقد روى تجربة قريبة من تجربتي، لكنه كان في قاطع قريب من الخطوط الأمامية، ووصف الخوف الذي عاشه الجنود هناك، ثم أشار إلى أن بعض زملائه أُسروا أو قُتلوا، مؤكدًا أن كثيرًا من العراقيين عاشوا التجربة نفسها.

وروى أبو سعود تجربة أخرى مؤلمة، إذ ذكر أنه أُرسل إلى جبهة القتال بعد اكتشاف عدم انتمائه إلى حزب البعث، وقال إن الانتقال إلى المواقع المتقدمة كان يُعامل كأنه عقوبة. وكان سؤاله قريبًا من السؤال الذي ظل يراودني:

هل كان الدفاع عن الوطن عقوبة؟

أما أحمد أبو العلا العباسي، فقد روى كيف اقتيد موظفون صحيون وأطباء وموظفون كبار في السن إلى الجبهات، ثم أُرسل بعضهم إلى معارك شديدة الخطورة، ولم يعد كثير منهم.

ومن التعليقات التي لفتت انتباهي أيضًا تعليق سهام فوزي، التي اقترحت أن تُجمع هذه الذكريات في كتاب حتى تتعرف الأجيال القادمة إلى جانب من تاريخ الحرب وما عاشه العراقيون خلالها.

كانت هذه التعليقات، التي كُتبت في الأيام التالية لنشر المقال عام 2010، شهادات أخرى من أشخاص عاشوا التجربة نفسها أو عاشوا تجارب قريبة منها.

ولذلك أحتفظ بها اليوم إلى جانب ذكرياتي، لأنها تُظهر أن ما كتبته لم يكن حالة فردية معزولة، بل جزءًا من تجربة واسعة عاشها العراقيون خلال سنوات الحرب.

صباح يوسف إبراهيم

.

———— ◆ ————

ذكريات مسيحي في رمضان أيام زمان

المقال الخامس

بينما كنت أراجع في عام 2026 بعض مقالاتي القديمة التي كنت قد نشرتها في موقع «الحوار المتمدن»، عثرت بالمصادفة على مقال كتبته قبل نحو ستة عشر عاما بعنوان:

»ذكريات مسيحي في رمضان أيام زمان«

ما إن بدأت أقرأ المقال حتى عادت إلى ذاكرتي أيام بعيدة عشتها في شبابي، عندما كنت أعمل مهندسًا في ناحية الكرمة عام 1968، ومرّ عليّ شهر رمضان وأنا أعمل هناك بين أهل المنطقة وعمالي المسلمين.

كانت تلك الذكرى قد مضى عليها يومذاك نحو ثمانية وأربعين عامًا عندما كتبت عنها المقال، وها أنا أعود إليها الآن بعد مرور ثمانية وخمسين عامًا على أحداثها، لا لأكرر مقالًا قديمًا، وإنما لأحفظ في هذا الكتاب ذكرى جميلة من أيام زمان، عشت تفاصيلها بنفسي، وما زالت بعض مشاهدها حاضرة في ذاكرتي.

في عام 1968، كنت أعمل مهندسًا لتصميم وتأسيس ونصب شبكات الكهرباء للقرى والأرياف، مندوبًا عن وزارة البلديات، في ناحية الكرمة جنوب الفلوجة، قرب بغداد. أمضيت هناك نحو سنة، ثم انتقلت إلى تأسيس شبكات كهربائية جديدة في قضاء حديثة ومنطقة الوس التابعة لمحافظة الرمادي (الأنبار)

كنت المسيحي الوحيد الذي يعمل في تلك المنطقة، وكان معي عمال مسلمون استأجرتهم بأجور يومية من أهل المنطقة لتنفيذ العمل. كانوا شبابًا طيبين في أخلاقهم وسلوكهم، وكذلك كان أهل المنطقة من العشائر العربية الكريمة، من أهالي الكرمة وقراها، مثل الصبيحات والشهابي وغيرها. كانوا من أروع الناس الذين عرفتهم؛ عربًا أصلاء وكرماء.

اعتاد أهالي تلك المناطق العربية الأصيلة على استقبال المهندس المسيحي الذي جاء من بغداد ليؤسس قراهم بشبكات الكهرباء، بعد أن حُرموا منها سنوات طويلة، وكانوا متلهفين لإنارة بيوتهم بالمصابيح بدلًا من الفوانيس.

كانوا يستقبلونني في قراهم وبيوتهم بالترحاب والضيافة الكريمة، التي تعكس أصالة العشائر العربية العراقية وكرمها وحسن ضيافتها للغريب. وكان أهل القرية يعرفون أنني أتأخر في العمل إلى ما بعد العصر، لكي أسرّع في إنجاز تمديد الشبكات الكهربائية، حتى يتمتعوا بمنافعها في أقرب وقت.

فكان شيخ العشيرة أو أحد وجهاء القوم، في كل منطقة أعمل فيها مع مجموعة العمال، يتفق مع أهل القرية، ومن غير علمي، على أن يقدموا لنا، أنا وعمّالي الذين كان عددهم يقارب الثلاثين، طعام الغداء ظهرًا؛ لأننا جئنا من منطقة بعيدة، واعتبرونا ضيوفًا عليهم.

وكان معظم أهل المنطقة ميسوري الحال، أصحاب أغنام ومزارع وبساتين برتقال ونخيل مثمرة. وكان يأتي إليّ كل يوم صاحب أقرب دار يصادف أن يكون عملنا بالقرب منها، ويقول لي:

»أستاذ، غداكم اليوم عندي«.

وكان كل صاحب دار قريب من مكان عملنا يستضيفنا، أنا وعمّالي الذين كان عددهم يتراوح بين عشرين وثلاثين فردًا، بوليمة غداء. وكانوا يذبحون خروفًا ويعدّون الأكلة المشهورة عندهم، التي يسمونها «دليمية»، وهي خبز وثريد يعلوه لحم الطلي، أي الخروف، مع الرز.

وكانوا يقدمونها في صينية كبيرة، يعلوها جزء من رأس الخروف، ويوزعون عدة صوانٍ مع اللبن على مجموعات العمال، كل خمسة منهم في صينية، يجتمعون حولها في ديوانية أو مضيف صاحب الدار.

واستمرت هذه الحالة طوال فترة عملنا هناك.

رمضان في ناحية الكرمة

ومرّ علينا، أثناء فترة العمل في قرى الصبيحات في ناحية الكرمة، شهر رمضان المبارك.

كان جميع الإخوة المسلمين هناك يصومون رمضان، ومن ضمنهم العمال المحليون العاملون معي. وكانوا جميعًا يعرفون أن مهندس الكهرباء الذي يعمل في خدمتهم لإيصال شبكة الكهرباء الوطنية إلى بيوتهم وقراهم هو مسيحي، ولا شأن له بصيام رمضان المبارك.

كان أهل المنطقة والقرية يتوقفون عن ذبح الخراف لإطعامي أنا وعمّالي في رمضان، لأنهم كانوا صائمين. ولكن كرمهم كان يأبى عليهم أن يتركوني بلا غذاء وقت الظهر، حتى أصل إلى بيتي في بغداد مساءً.

فكانوا، ومن غير علمي أيضًا، ومن دون أن أوافق على تصرفهم، يذبحون لي دجاجة ويطبخونها، مشوية أو مطبوخة مع الرز، ويقدمونها لي في صحن خاص بي وحدي وقت

الاستراحة، بالرغم من اعتراضي المستمر على ذلك احترامًا لمشاعرهم. لكنهم كانوا يرفضون اعتراضي بإصرار.

وفي وقت استراحة العمال من العمل ظهرًا، ولمدة ساعة واحدة، كان صاحب الدار المضيف لنا في ذلك اليوم يناديا ويدعوني إلى الغداء في ديوانية داره الواسعة.

فيجلس هو وبقية العمال جميعًا في محيط الديوانية، وقد لفوا وجوههم باليشماغ، صامتين جائعين، وينظرون إليّ وأنا آكل وحدي.

وكنت أشعر بحرج كبير من تناولي الطعام أمام مجموعة من الإخوة الصائمين الجائعين.

لكنني لم أشعر يومًا، لا بتلميح ولا بتصريح، أن أحدًا منهم تذمر من هذه الحالة؛ فأنا آكل وهم صائمون. ولم يظهر على أي منهم ما يشعرني بأنني غريب عنهم.

كانوا يعتبرونني كابن العشيرة وابن القرية، وواحدًا منهم تمامًا، وكان حبهم لي يزداد كل يوم.

مفاجأة الحمل الصغير

وفي أحد الأيام، كنا منهمكين في العمل في إحدى القرى، ولم يستضيفنا أحد في ذلك اليوم؛ لأن صاحب الدار الذي كنا نعمل بالقرب منه كان قد ذهب إلى بغداد لإنجاز عمل ما.

عاد الرجل إلى القرية عند انتهاء عملنا وقت الغروب، وكنت منشغلًا بدفع أجور العمال. ثم ركبت سيارة البيك أب للعودة إلى بغداد، وأنا متعب، من دون أن أنتبه إلى شيء.

سرت مسافة نحو كيلومتر واحد، فسمعت صوت مواء حمل صغير في مؤخرة السيارة.

توقفت بالسيارة، فإذا بي أجد حملًا صغيرًا مربوطًا في حوض السيارة.

اندهشت متعجبًا من وجوده في سيارتي، فعُدت راجعًا إلى القرية لأستفسر عمن وضع الخروف الصغير في سيارتي ونسيه.

لم أجد أحدًا، فزمرت بمنبه السيارة في القرية، فخرج صاحب الدار الذي كنا نعمل بالقرب منه.

سألته:

ـ هل تعلم لمن هذا الخروف الصغير؟ ومن وضعه في سيارتي ونسيه؟

فابتسم الرجل وقال لي:

ـ لا تقلق. أنا من وضعته في سيارتك لتأخذه معك، ليلعب معه ابنك الصغير. لأنني لم أقم بواجب ضيافتك هذا اليوم، لوجودي في بغداد، ولم أستطع أن أذبح الخروف لك ولعمالك كغذاء اليوم. وأعتذر عن عدم استضافتكم في بيتي.

عدت إلى بغداد وأنا أحمل معي ذلك الحمل الصغير، لكنني كنت أحمل معه شيئًا أكبر بكثير من الخروف؛ كنت أحمل في قلبي صورة رجل عراقي كريم، شعر بالحرج لأنه لم يستطع أن يؤدي واجب الضيافة تجاه ضيفه، فأراد أن يعوضني عنه بطريقته الخاصة.

لقد كانت تلك الأيام تعكس، كما عشتها وشاهدتها بنفسي، صورة جميلة للعلاقات بين الناس في ذلك الزمن؛ عراقًا لم يكن اختلاف الدين فيه حاجزًا بين الناس، بل كان المسلم والمسيحي يتعاملان كأخوين، تجمعهما المودة والاحترام والعيش المشترك.

وبعد مرور عشرات السنين، عندما عثرت على هذه الذكرى القديمة وقرأت ما كنت قد كتبته عنها، عادت إليّ تلك الوجوه والقرى والديوانيات وأيام العمل في الكرمة، فعرفت أن بعض الذكريات لا تموت مهما طال الزمن.

لقد عشت تلك الأيام في عام 1968، وكتبت عنها بعد سنوات طويلة، وها أنا أعود إليها من جديد الآن؛ لأنني أدركت أن ما عشناه في الماضي ليس مجرد أحداث مضت، بل جزء من حياتنا يستحق أن يبقى محفوظًا في الذاكرة.

واحسرتاه على أيام زمان.

الهروب من بغداد

المقال السادس

أحياناً تعود إلينا الذكريات من مكان لم نكن نتوقعه.

بعد أن استعدتُ في عام 2026 ذكرياتي عن هروب عائلتي من بغداد خلال حرب الخليج الثانية، عثرت بالمصادفة، أثناء بحثي في أرشيف مقالاتي القديمة، على نص كنت قد كتبته قبل نحو ستة عشر عامًا و نشرته في موقع «الحوار المتمدن» في 19 أيار/مايو 2010 بعنوان:

»من ذكريات الماضي... الهروب من بغداد«

وهذا رابط المقال:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=216019

كنت قد نسيت هذا المقال تماماً.

وعندما قرأت جزأيه بعد ستة عشر عاماً، فوجئت بأنني كنت قد سجلت فيهما معظم الأحداث الأساسية التي استعادتها ذاكرتي عندما عدت إلى كتابة هذه الذكرى في عام 2026.

تطابقت في الروايتين رحلة الخروج من بغداد تحت القصف، والوصول إلى الموصل ثم التوجه إلى تلكيف، والبحث عن البيت الذي كان من المفترض أن يستضيفنا، والمبيت الأول في بيت عائلة لم نكن نعرفها، ثم العثور في اليوم التالي على عديلي وأهل زوجتي، والإقامة معهم، قبل أن تدفعنا صعوبة الظروف ونفاد الماء والغذاء إلى اتخاذ قرار العودة إلى بغداد.

كما سجلت في المقال القديم تفاصيل رحلة العودة: البحث عن البنزين، والعثور على خمسة وعشرين لتراً منه لدى أخي، ثم انفجار إطار السيارة قرب كركوك، والبحث بصعوبة عن محل لإصلاحه، وأخيراً الوصول إلى بغداد بعد رحلة شاقة.

وعند عودتنا وجدنا أن انقطاع الكهرباء أدى إلى فساد ما كنا قد خزناه من الطعام استعداداً للحرب.

قد توجد بعض الاختلافات في التفاصيل أو في ترتيب بعض الأحداث بين الرواية القديمة والرواية التي استعدتها لاحقاً، وهذا أمر طبيعي بعد مرور عقود طويلة على تلك الأحداث.

فالذاكرة البشرية لا تحتفظ بكل التفاصيل بالصورة نفسها، وقد تنسى بعض الجزئيات ثم تستعيدها لاحقاً.

لكن المفاجأة بالنسبة إليّ كانت أن جوهر القصة وتسلسل أحداثها الأساسية بقي محفوظاً في ذاكرتي، وكنت قد سجلته بالفعل كتابةً قبل ستة عشر عاماً.

وهكذا أصبح المقال القديم شاهداً على هذه الذكرى، لا لأنني اعتمدت عليه عندما كتبتها من جديد، بل لأنني كتبته قبل سنوات طويلة ثم نسيته، قبل أن أعثر عليه مصادفة بعد أن استعدت القصة من ذاكرتي.

ليلة الهروب

بعد اجتياح القوات العراقية للكويت في 2 آب/أغسطس 1990، تصاعدت التهديدات الدولية للعراق، وأصبح واضحاً أن المنطقة تتجه نحو حرب جديدة.

كان الشعب العراقي قد خرج لتوه من حرب طويلة مع إيران استمرت ثماني سنوات، ولذلك كان العراقيون يعرفون جيداً معنى الحرب وما تجره من موت ودمار.

ومع اقتراب المواجهة مع قوات التحالف الدولي، ازداد الخوف من القصف الجوي، ومن احتمال استخدام الأسلحة الكيميائية.

كانت عائلتي تبحث عن مكان أكثر أمناً بعيداً عن بغداد والمدن الرئيسية.

أخبرني عديلي، المتزوج من شقيقة زوجتي، أن له صديقاً في مدينة تلكيف في محافظة نينوى، وأنه يستطيع أن يستضيفه مع زوجته وحماته هناك إذا نشبت الحرب. واقترح أن نذهب نحن أيضاً إلى المكان نفسه مع عائلتي حتى تنتهي الحرب.

اتفقنا على ذلك.

وفي ليلة بدء الحرب، استيقظنا عند الساعة الثانية صباحاً على أصوات القصف الصاروخي.

كانت الصواريخ تدك مواقع مختلفة في بغداد، وانقطع التيار الكهربائي نتيجة القصف الذي أصاب منشآت الكهرباء وغيرها.

أعددنا ما نستطيع حمله من المواد الغذائية والأفرشة والحاجات الضرورية، ووضعناها في السيارة، وانتظرنا بزوغ ضوء النهار.

حاولت الاتصال هاتفياً بعديلي لأعرف هل انطلق إلى نينوى أم لا، لكن الهاتف كان مقطوعاً بسبب القصف الذي أصاب منشآت الاتصالات.

لم يكن أمامنا سوى أن نتوكل على الله.

انطلقتُ مع زوجتي واثنين من أبنائي، بينما كان ابناي الآخران عسكريين، وكل واحد منهما في موقعه العسكري بسبب حالة الإنذار.

وصلنا إلى مدينة الموصل ليلاً.

كانت المدينة غارقة في الظلام بعد أن قصفت محطات توليد الكهرباء، وكان الجو ممطراً وكئيباً، والشوارع خالية تقريباً من الناس والسيارات.

وعندما مررنا بالقرب من فندق نينوى، اقترحت زوجتي أن نقضي تلك الليلة في الفندق، لأن الوقت أصبح متأخراً، والظلام شديد، ونحن لا نعرف طرق الموصل ولا الطريق المؤدي إلى تلكيف.

لكنني رفضت اقتراحها، وأصررت على مواصلة الطريق.

خرجنا من الموصل باتجاه تلكيف.

كان الطريق الخارجي موحشاً ومقفراً، لا أضواء فيه ولا سيارات، ولم نكن نسمع سوى نباح الكلاب من البساتين القريبة.

بدأ الخوف يسيطر على زوجتي، وأخذت تتخوف من اللصوص وقطاع الطرق، ثم أعادت طلبها، وهي تبكي، أن نعود إلى الموصل.

لكنني كنت مصمماً على الوصول إلى تلكيف بأسرع ما يمكن، وكنت أطمئنها باستمرار بأن المدينة أصبحت قريبة، رغم أن الطريق كان لا يزال طويلاً.

ازداد المطر، واشتد الظلام، حتى دخلنا أخيراً المدينة التي كنا نبحث عنها.

تنفست الصعداء، لكن مشكلة جديدة واجهتني.

لم أكن أعرف المدينة، ولم أزرها من قبل، ولا أعرف البيت الذي نقصده.

كل ما أتذكره أن عديلي أخبرني بأن بيت صديقه يقع بالقرب من خزان الماء العالي في وسط المدينة.

وصلنا إلى الخزان، وكانت عشرات الدور متراصة حوله.

وقفت في الشارع المظلم الخالي من الناس، ولم يكن يظهر سوى ضوء خافت من بعض النوافذ مصدره الشموع والفوانيس النفطية.

وفجأة ظهرت فتاة في الطريق، فسألتها عن البيت الذي نبحث عنه، فأشارت إليه.

طرقت الباب عدة مرات.

وبعد لحظات جاءني صوت امرأة خائف:

ـــ من الطارق؟

أجبتها بأنني وصلت تواً مع عائلتي من بغداد، وأن عديلي صديق لعائلتهم، وسألتها إن كان قد وصل إليهم.

أجابتني باستغراب:

ـــ لا، لم يصل إلينا، ولا نعرف أنه سيزورنا في مثل هذا اليوم.

سقطت الكلمات عليّ كالصاعقة.

بدأت أفكر: أين سنقضي ليلتنا؟

نحن مرهقون بعد أكثر من ثماني ساعات من السفر، وزوجتي وأولادي يعيشون حالة من الخوف، والمطر مستمر، والظلام يحيط بنا، ونحن غرباء في مدينة لا نعرف فيها أحداً.

لاحظت المرأة الحيرة والقلق على وجهي، فقالت:

ـــ يمكنكم المبيت عندنا هذه الليلة حتى الصباح. تفضلوا، أنتم ضيوفنا.

دخلنا البيت على ضوء فانوس صغير كانت تحمله المرأة.

وهناك كانت مفاجأة أخرى تنتظرنا.

كانت غرف البيت مليئة بعائلات جاءت من بغداد قبلنا، هاربة من القصف والخوف. كانوا أقرباء للعائلة ويعرف بعضهم بعضاً، وكانوا يتحدثون باللغة الكلدانية التي لم نكن نفهمها.

أما نحن فكنا غرباء بينهم، لا نعرفهم ولا يعرفوننا.

كانت تلك الليلة بداية تجربة جديدة في رحلة هروبنا من بغداد.

سبعة أيام في الغربة

نمنا تلك الليلة بصعوبة بالغة، رغم التعب والإرهاق.

وفي الصباح بدأنا نتساءل عن مصير عديلي وأهل زوجتي الذين لم يصلوا إلى البيت الذي كنا نعتقد أنه سيكون ملجأنا.

وكان قلقنا الأكبر أن يكون قد أصابهم مكروه في الطريق.

وفي الصباح جاءت سيدة من أقرباء العائلة التي استضافتنا، وبعد أن شرحت لها قصة عديلي وأن له قريبة تسكن في المدينة ولا نعرف بيتها، عرضت أن توصلنا إليها لأنها تعرفها.

ذهبنا معها، وكانت المفاجأة السعيدة أننا وجدنا عديلي وأهل زوجتي هناك.

فقد كانوا قد غيروا مكان إقامتهم، واختاروا ذلك البيت الكبير لأن صاحبته كانت تعيش فيه مع زوجها فقط.

وبناءً على طلب عديلي قررنا الإقامة معهم.

وبعد يومين وصلت عائلتان من البصرة تربطهما صداقة قديمة بصاحبة الدار، فلجأتا إليها هرباً من القصف.

وهكذا أصبح البيت يضم أربع عائلات، إضافة إلى صاحبة الدار.

في البداية تحملنا الوضع، لكن الأيام بدأت تكشف صعوبة الحياة.

خلال سبعة أيام نفد الماء والغذاء والوقود اللازم للطبخ والإنارة.

كانت لدينا نقود، لكن النقود لم تكن تنفع كثيراً، لأن معظم الأسواق والمحلات كانت مغلقة.

لم نجد إلا كميات قليلة من التمر والبطاطا.

وبدأت علامات التذمر تظهر على وجه صاحبة الدار، فقد أصبح عدد الضيوف أكبر بكثير مما كانت تتوقع، كما أن مخزون الماء في البيت بدأ ينفد.

عندها قررنا العودة إلى بيتنا في بغداد.

كان قراراً صعباً، لكننا كنا قد تركنا في منزلنا ثلاجات ومجمدات مليئة بالطعام والدجاج والسمك والخضروات، إضافة إلى كميات من الرز والبقوليات والطحين والزيت، استعداداً لظروف الحرب.

فكرنا أن المعاناة في بيتنا وبين أهلنا أفضل من الجوع والعطش والغربة في مكان آخر.

البحث عن البنزين

كانت السيارة بحاجة إلى البنزين.

علمنا بوجود محطة وقود مفتوحة، فانطلقت إليها ووجدت طابوراً طويلاً من السيارات.

انتظرت وقتاً طويلاً، وكان بعض السائقين يدفعون سياراتهم بأيديهم بدلاً من تشغيل المحرك وإطفائه باستمرار، حرصاً على توفير ما لديهم من الوقود.

وبعد انتظار طويل وصلت أخيراً إلى مضخة الوقود.

لكن مدير المحطة أصدر أمراً بإيقاف البيع، بعد أن تلقى برقية من السلطات المحلية تقضي بتخصيص ما تبقى من البنزين لسيارات الدولة والحزب.

في تلك اللحظة شعرت أن الدنيا قد أغلقت أبوابها أمامنا.

ماذا نفعل الآن؟

تذكرت أن أخي وزوجته ووالدتي كانوا قد أخبرونا بأنهم سيتوجهون إلى مدينة الحمدانية إذا اندلعت الحرب.

قررت أن أذهب إليهم لأطمئن عليهم، ولعلنا نجد هناك كمية من البنزين تساعدنا على العودة إلى بغداد.

وصلنا إلى الحمدانية، وبعد البحث عثرنا على منزل أخي.

والحمد لله وجدنا الجميع بخير.

وبعد استراحة قصيرة أخبرني أخي أنه احتفظ بكمية من البنزين مقدارها خمسة وعشرون لتراً في وعاء بلاستيكي.

كانت تلك الكمية بالنسبة لنا في ذلك الوقت كنزاً ثميناً.

أخذتها، وملأت بها خزان السيارة، وودعت والدتي وأخي وعائلته، وانطلقنا باتجاه بغداد.

قبل الوصول إلى بغداد

لكن الرحلة لم تنتهِ بعد.

وقبل الوصول إلى كركوك، انفجر أحد إطارات السيارة.

استبدلته بالإطار الاحتياطي، لكنني كنت أعرف أن الطريق إلى بغداد لا يزال طويلاً، وأنني بحاجة إلى إصلاح الإطار التالف ونفخه بالهواء، لأن السيارة لم تعد تملك إطاراً احتياطياً صالحاً.

بحثت عن محل لإصلاح الإطارات، لكن معظم المحلات كانت مغلقة بسبب انقطاع الكهرباء وعدم توفر الطاقة اللازمة لتشغيل معدات الإصلاح وضغط الهواء.

واصلت البحث حتى عثرت، بعد جهد كبير، على محل مفتوح، وكان فيه مصباح مضاء.

عرفت من ذلك أن الكهرباء متوفرة لديه.

أصلح الرجل الإطار، ولكن بسعر أعلى بكثير من السعر المعتاد، ثم واصلنا طريقنا إلى بغداد.

وصلنا إلى بيتنا مساءً.

لكن المفاجأة كانت قاسية.

لم تكن الكهرباء قد عادت إلى المنزل طوال الأسبوع الذي غبنا فيه.

كانت الثلاجة والمجمدة قد توقفتا عن العمل، وفسد الطعام الذي كنا قد خزناه تحسباً للحرب.

اضطررنا إلى إخراج عشر دجاجات وثلاث سمكات كبيرة، كانت قد ذابت عنها الثلوج وفسدت، ووضعناها في أكياس القمامة.

وبدلاً من أن تكون طعاماً لعائلتنا، أصبحت طعاماً لقطط وكلاب الشوارع التي تشاركت فيها.

وبقينا على هذه الحال أشهراً طويلة، وكانت الكهرباء تعود أحياناً لساعتين في اليوم ثم تنقطع من جديد.

أما الطبخ وإعداد الخبز، فأصبحا يتمان على المدافئ النفطية.

كانت تلك الرحلة واحدة من التجارب التي جعلتني أدرك حجم المعاناة التي عاشها العراقيون في تلك السنوات.

لم تكن الحرب بالنسبة إلى المواطن العراقي مجرد أصوات قصف وصواريخ، بل كانت أيضاً خوفاً على العائلة، وهروباً من المدن، ونقصاً في الماء والغذاء والوقود، وانقطاعاً للكهرباء، وصعوبة في أبسط متطلبات الحياة.

وعندما أعود اليوم إلى هذه الذكرى، لا أتذكر القصف وحده، بل أتذكر أيضاً تلك الرحلة الطويلة في الظلام والمطر، وقلق زوجتي، والبيت الذي فتح لنا بابه ونحن غرباء، والبحث عن البنزين، والإطار الذي انفجر قبل كركوك، ثم عودتنا إلى بيتنا لنجد طعامنا قد تحول إلى طعام لقطط وكلاب الشوارع.

شهادة من الماضي

بعد أن عثرت على مقالي القديم في عام 2026، أدركت أن ما عشته في تلك الرحلة لم يكن تجربة خاصة بعائلتي وحدها.

فقد كشفت تعليقات القراء على المقال، بعد نشره عام 2010، أن عائلات عراقية كثيرة كانت تعيش في الوقت نفسه الخوف والبحث عن مكان آمن، وتعاني من نقص البنزين والماء والوقود، وانقطاع الكهرباء، وصعوبة التنقل بين المدن.

قرأ بعضهم قصتي فاستعاد تجربته الخاصة، وكأن مقالة واحدة فتحت أمامهم أبواب ذكريات كانوا قد دفنوها في أعماق ذاكرتهم.

وهذا جعلني أدرك أن تسجيل الذكريات لا يحفظ حياة صاحبها فقط، بل يمكن أن يحفظ شيئاً من تاريخ شعب كامل.

لقد كنت يومها أعيش الأحداث كأب يحاول أن يحمي عائلته ويبحث لها عن مكان أكثر أمناً، ولم أكن أفكر أن تلك التفاصيل الصغيرة ستصبح بعد سنوات شهادة على مرحلة قاسية من تاريخ العراق.

واليوم، وأنا أعود إليها بعد عقود، أرى أن أخطر ما في الحروب ليس القصف وحده، وإنما ما تتركه وراءها من خوف وفقر ونقص في أبسط مقومات الحياة، ومن آثار تبقى في ذاكرة الناس حتى بعد توقف المدافع.

ولهذا أكتب هذه الذكريات لأبنائنا وأحفادنا؛ لكي يعرفوا أن ما يقرأونه عن تلك السنوات لم يكن مجرد أرقام عن حرب أو بيانات عسكرية، وإنما كان حياة حقيقية عاشها الناس يوماً

بيوم، وخوفاً حملته العائلات معها في طرق الهروب، وماءً وبنزيناً وطعاماً وكهرباء أصبحت كلها مسائل مصيرية.

وقد بقيت هذه الرحلة محفوظة في ذاكرتي، ثم اكتشفت بعد ستة عشر عاماً أنها كانت محفوظة أيضاً على صفحات مقال قديم كتبته بنفسي.

لقد نسيتُ المقال، لكن الأحداث التي عشتها بقيت في داخلي.

صباح يوسف إبراهيم

———— ◆ ————

شهادات من قراء مقال «من ذكريات الماضي... الهروب من بغداد» – الجزء الأول

عندما نُشر الجزء الأول من المقال عام 2010، تفاعل معه القراء واستعاد بعضهم ذكريات تلك الأيام الصعبة، بينما أشار آخرون إلى خطورة الظروف التي عاشها العراقيون خلال الحرب.

كتب القارئ فيصل البيطار أن ما جرى كان مأساة حقيقية جرّ العراق إليها الدكتاتور، وأشار إلى أن صدام حسين لم يكن يتوقع أن تقوم الولايات المتحدة بضرب العراق، وأنه كان مطمئناً إلى موقفها منه حتى فوجئ بالحرب.

أما قارئة الحوار المتمدن، فقد رأت أن ما ورد في المقال يعكس تجربة محفوفة بالأخطار، وقالت إن ذكريات الجزأين كشفت لها جانباً من الظروف المحزنة التي عاشها العراقيون في ظل الحكم الدكتاتوري، وشكرتني على نقل هذه التجربة إلى القراء.

وقد جاءت هذه الشهادات بعد نشر الجزء الأول مباشرة، وهي تمثل انطباعات القراء في ذلك الزمن القريب من الأحداث، وتؤكد أن تجربة الهروب من بغداد لم تكن مجرد رحلة عائلية عابرة، بل كانت جزءاً من حالة الخوف والقلق التي عاشها العراقيون مع اندلاع الحرب.

———— ◆ ————

الخاتمة

عندما بدأتُ هذا الكتاب، لم أكن أعرف إلى أين ستقودني الذاكرة.

كنت أظن أنني أستعيد بعض الحوادث القديمة من سنوات حياتي في العراق، لكنني اكتشفت أثناء البحث أن للذكريات طرقًا أخرى للعودة.

أحيانًا تعود الذكرى من مكان بعيد في الذاكرة، وأحيانًا من صورة قديمة، وأحيانًا من كلمة يسمعها الإنسان بعد سنوات طويلة.

أما المفاجأة الأكبر بالنسبة إليّ، فكانت أنني عثرت على بعض ذكرياتي مكتوبة في مقالات قديمة كنت قد نشرتها قبل ستة عشر عامًا، ثم نسيت بعضها تمامًا.

لقد عدت في عام 2026 إلى أحداث عشتها قبل عقود، ثم وجدت أنني كنت قد سجلت جانبًا كبيرًا منها كتابةً في عام 2010.

وهكذا التقت في هذا الكتاب ذاكرة الإنسان بذاكرة الورق.

كانت الذاكرة تستعيد الحدث من الداخل، وكانت المقالات القديمة تقف شاهدًا على ما كنت أتذكره.

ولم تكن شهادات القراء أقل أهمية؛ فقد كشفت كثير من تعليقاتهم أن ما عشته لم يكن تجربة فردية منعزلة، بل كان جزءًا من حياة عاشها آلاف العراقيين، كل واحد منهم بطريقته الخاصة.

قرأت في تلك التعليقات ذكريات أشخاص عاشوا الحروب نفسها، أو عانوا من الخوف نفسه، أو وجدوا أنفسهم في ظروف قريبة من ظروفي.

وهنا فهمت أن الذكرى، عندما تُكتب، لا تبقى ملكًا لصاحبها وحده.

قد يقرأها شخص آخر فيجد فيها شيئًا من حياته، وقد تعيد إليه حادثة نسيها، أو تفتح في ذاكرته بابًا كان مغلقًا منذ سنوات.

لهذا لم يعد هدفي من هذا الكتاب مجرد استعادة الماضي، وإنما حفظ جزء من ذاكرة زمن عاشه جيل كامل.

لقد تغير العراق كثيرًا، وتغيرت المدن التي عرفناها، وتغيرت الحياة، ورحل أشخاص كثيرون كانوا جزءًا من تلك الذكريات.

لكن ما عاشه الإنسان بصدق لا يختفي تمامًا.

يبقى في ذاكرته، أو في أوراقه، أو في قصة يرويها لأبنائه وأحفاده.

وأنا اليوم، بعد كل هذه السنوات، لا أستطيع أن أغير ما حدث.

لكنني أستطيع أن أترك شهادة عنه.

هذه الصفحات ليست كتاب تاريخ بالمعنى الأكاديمي، وليست دراسة سياسية أو عسكرية، وإنما هي ذكريات إنسان عاش تلك الأحداث، ثم حملها معه طوال حياته، قبل أن يعود في سنواته الأخيرة ليكتبها من جديد.

وقد تكون بعض التفاصيل قد غابت عني، وقد تختلف بعض الجزئيات أو ترتيبها مع مرور الزمن، لكنني كتبت ما بقي في داخلي بصدق، واستعنت بما تركته لنفسي في الماضي من نصوص، حتى لا تضيع الذكرى.

وربما تكون هذه هي الرسالة الأخيرة لهذا الكتاب:

لا تتركوا ذاكرتكم تموت معكم.

اكتبوا ما عشتموه، ووثقوا أيامكم، واحفظوا قصص مدنكم وعائلاتكم وأعمالكم؛ لأن ما يبدو لنا اليوم تفصيلًا بسيطًا قد يصبح غدًا وثيقة مهمة لجيل لم يعش زمننا.

لقد نسيتُ بعض المقالات التي كتبتها قبل ستة عشر عامًا، لكنني عندما عثرت عليها، اكتشفت أنها كانت تحفظ لي أجزاء من حياتي.

ولذلك أرجو أن يبقى هذا الكتاب، بعد أن يغيب صاحبه، شاهدًا صغيرًا على زمن عراقي طويل مررنا به، وعلى حياة إنسان حاول أن يعيش، وأن يعمل، وأن يحافظ على أسرته، وأن يفكر كمهندس حتى عندما كانت الظروف تدفعه بعيدًا عن الهندسة.

لقد نسيتُ المقال، لكنني لم أنسَ ما عشته.

وهذه الصفحات هي محاولتي لكي لا تضيع تلك الحياة من الذاكرة.

صباح يوسف إبراهيم

الفهرس

المقال الصفحة

صورة الغلاف 1

اسم الكتاب والمؤلف 2

مقدمة الكتاب 3

إهداء 6

شهدت مقتل نوري السعيد... 7

ذكرياتي في البصرة 14

تدريب عسكري أم

استعراض سياسي؟..... 22

إيفادي إلى أرض الموت.....25

الالتحاق بالجيش الشعبي.....31

ذكريات مسيحي في رمضان..39

الهروب من بغداد 43

الخاتمة 52

الفهرس 54